

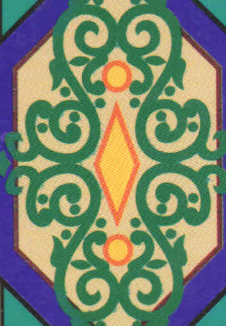
مع القرآن







الأتباع والمتبوعون في القرآن



الدكتور

صلاح عبد الفتاح الخالدي





دار المنار للنشر والتوزيع

فرع عمّان


الأتباع والمتبوعون
في القرآن

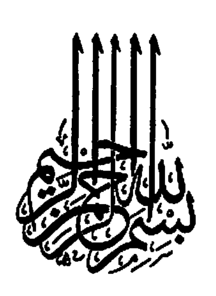
الطّبعَة الأولىَ

١٤١٧هـ - ١٩٩٦م



العبدلي - عمارة أباظة - مقابل مركز جوهرة القدس

هاتف: ٦٦١٠٣٢ - فاكس: ٦٠٤٣٠٥ - ص.ب: ٩٢٦٢٣١ - عمان - الأردن



مقدمة

إِنِ الحمدَ لله، نحمده ونستعينه، ونتوبُ إِليه ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شرورِ أَنفسنا، وسيئاتِ أعمالِنا، مَنْ يهد الله فلا مِضلَّ له، ومَن يُضللْ فلا هاديَ له، وأَشهدُ أنْ لا إِله إلا الله، وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلواتُ الله وسلامُه عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمّا بعد:

فقد سبقَ أَنْ أَصدرتُ قبلَ أكثرَ من سنتين الحلقةَ الأُولى من هذه السلسلة «مع القرآن»، وكانت بعنوان «هذا القرآن». ووعدتُ فيها بإِصدار حلقاتٍ أُخرى تاليةٍ.

وقد شاءَ اللهُ الحكيم أَنْ يتأخرَ إعدادُ هذه الحلقة الثانية، بسبب «تزاحُمِ» أَعمالٍ علميةٍ عليّ، اضطررتُ إلى تقديمِ بعضها والبدءِ به، وشاءَ الله أنْ يكون إِعدادُ هذه الحلقةِ في هذا الوقت، ونحنُ نوقنُ أنَّ الأُمورَ لا تتحققُ إلاّ بمشيئةِ الله وإِرادتِه سبحانه، وأَننا لا يمكنُ أنْ نفعلَ شيئاً إلا بأمرِ الله وقَدَرِه سبحانه.

الحلقةُ الثانيةُ من سلسلة «مع القرآن» هي «الأَتْباع والمتبوعون في القرآن»، حيثُ بحثتُ فيها مسألةً خطيرة، من أَخطرِ وأَهمِّ المسائلِ والموضوعات والقضايا والمشكلات، التي تواجهُ

البشرية، على اختلافِ الزمان والمكان، وهي مشكلةُ «التبعية».

لا تتخلّى البشريةُ عن المتابعةِ والتبعية، ولابدَّ أنْ يكونَ فيها في كلِّ زمانٍ ومكان متبوعون مطاعون من السادةِ والكبراء، والقادةِ والزعماء، وأنْ يكونَ فيها أَتْباعٌ لهؤلاء المتبوعين، والأَتْباعُ هم ذلك القطاعُ الكبيرُ العريضُ الطويل الكثير، من الشعوبِ والرعايا والجماهير، التي تتبعُ سادتَها وكبراءَها.

كانت هذه المشكلةُ قائمةً في الماضي، قبلَ نزول القرآن، حيث أَخبرنا القرآن عن «الأَتْباع والمتبوعين» الضالّين الكافرين، الذين وقفوا أَمامَ دعواتِ الرسل، وحاربوا الحقَّ وجنودَه، كما حصلَ من قومِ نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام، وكما حصلَ مع موسى وهارون، ومع عيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

وهذه المشكلةُ بقيتْ قائمةً بعد نزول القرآن، حيث شهدت القرونُ اللاحقةُ نماذجَ بارزةً للأَتْباع والمتبوعين في مختلفِ المواقع والبلدان، في بلاد المسلمين، وفي أوروبا، وفي آسيا وأفريقيا.

لكنَّ مشكلةَ «التبعية» ومسألةَ «الأَتْباع والمتبوعين» أَبرزُ ما تكون وضوحاً، وأكثرُ ما تكونُ خطورة، في هذا العصر الحديث. وهي مشكلةٌ تُعاني منها مختلفُ الشعوبِ والأمم، والأنظمة والدول، في عالمِ الغرب وعالم الشرق، في الدولِ الشماليةِ الغنية، والدولِ الجنوبية الفقيرة، في أوروبا وآسيا وأفريقيا وأمريكا..

ففي مختلفِ دولِ هذا العالم، هناك أَتباعٌ كثيرون يُعَدّون بالمليارات، وهناك متبوعون قليلون يُعَدّون بعشراتِ الأُلوف. ويَحرصُ المتبوعون القلائلُ على أنْ يَتبعهم السوادُ الأعظم من الأتْباع في كل شيء، وأنْ يستسلموا لهم في كلِّ شيء، وأنْ ينفِّذوا لهم كلَّ شيء، وأنْ لا يكون لهؤلاء الأتْباع أيُّ شيء!! إلاّ التخلي عن الشخصيةِ والإرادة والحرية والكرامة، والسيرُ في ركاب المتبوعين، وتحوُّلُهم إلى «ذَرّات» صغيرة تدورُ حولَ هالات المتبوعين الضخمة!!!.

ويُعاني العالمُ الإسلاميُّ كثيراً من مشكلةِ التبعية، ويعيشُ في واقعه مسألةَ الأتْباعِ والمتبوعين، في أَشدِّ حالاتها ظهوراً وحِدَّةً وخطورة! وعندما نَنظرُ في آياتِ القرآن، فإننا نجدُها تعالجُ هذه المشكلة علاجاً ناجعاً، وتبحثُها وتحللُها، وتبينُ أسبابَها ومظاهرَها، وترسمُ مشاهدَها وصورَها، وتحددُ عاقبتَها ونهايتَها.

لذلك أَعددتُ هذه الرسالةَ لدراسةِ مشكلةِ «الأتْباع والمتبوعين» دراسةً قرآنية، لبيان ماذا يقولُ القرآنُ عن الأتْباع وسبب تبعيتِهم، وما هي صفاتُهم التي أَدّت إلى استضعافِهم واستذلالِهم، وماذا يقولُ القرآنُ عنِ المتبوعين، وما هي أَسبابُ استكبارِهم، ومظاهرُ تجبُّرِهم وتألُّهِهم، وما هي أَساليبُهم في إغواءِ الأتْباع وإضلالهم.

وقفتُ مع آياتِ القرآن التي تتحدثُ عن الصلةِ بين الأتْباع والمتبوعين في الدنيا، وتجعلُهم مشتركين معاً في ما يوقعُ اللهُ

بالمتبوعين من دَمارٍ وهلاكٍ في الدنيا، كما حصلَ مع قوم نوح وهود وصالح وشعيب عليهم الصلاة والسلام، وكما حصلَ مع فرعونَ وآلِه وملئه في حرب موسى عليه السلام.

وكانت الوقفةُ أطولَ مع الآياتِ التي تَعرضُ مشاهدَ لما سيكون بين الأتْباع والمتبوعين من مواقف ومفاجآت، وذلك عندما يبعثُهم الله جميعاً، ويوقِفُهم للحساب، ثم يُدخلُهم نارَ جهنم.

تحدثت الآياتُ كثيراً عن ما سيكونُ بين الأتْباع والمتبوعين يوم القيامة من جدالٍ واتهامٍ وسباب، ومن تخاصُم وتَشاتُم وتَلاعُن، ومن بَراءةٍ وتكذيبٍ وتضليل، وما يُصيبُ الفريقين من حسرةٍ وندامة، وذلٍّ وخزيٍ.

بدأتُ الدراسةَ بالإشارة إلى «أهمية موضوع التبعية» وبالذاتِ في العصر الحديث، ثم عرضْتُ بعضَ تعابيرِ القرآن عن التبعية، مثل: الاتِّباعِ والاقتداءِ والاتّساءِ والخلة والإمامة والقرينِ والإضلال. ثمَ تحدثْتُ عن «الاتِّباع في القرآن» وتابعْتُ اشتقاقات وتصريفاتِ الكلمةِ في القرآن، وفرّقْتُ بين تلك الاشتقاقات والتصريفات.

وبعد ذلك حلَّلْتُ الآياتِ التي عرضت المشاهدَ والصورَ واللقطاتِ التي تصوِّرُ ما بين الأتْباعِ والمتبوعين في الدنيا، وما سيكونُ بينهم في الآخرة، واخترتُ عشرَ سور، ورتَّبْتُها حسب ترتيب المصحف، وهذه السور هي: سورة البقرة، وسورة

الأعراف، وسورة إبراهيم، وسورة النحل، وسورة الشعراء، وسورة القصص، وسورة الأحزاب، وسورة سبأ، وسورة ص، وسورة غافر.

وختمتُ الكلامَ على هذه المشاهد العشرة بعرضِ نموذجٍ عمليٍّ عرضَهُ القرآن، تجلَّتْ فيه مسألةُ الأتْباع والمتبوعين في بُعْدِها الواقعي، وهو النموذجُ الفرعوني، المتمثلُ في تألُّهِ فرعون، ومتابعةِ جنوده وآله وأتباعه له، في مواجهةِ موسى عليه السلام ومَن معه، وتابعتُ عرضَ القرآن لنهايةِ اتِّباع فرعون، التي أوصلت الأتْباع والمتبوعين إلى الغرق في مياهِ البحر، وتصويرَ اللحظات الأخيرة من حياة فرعون تحت الماء، وماذا قال وماذا قيل له هناك!

ووقفْتُ في نهايةِ الرسالة مسجِّلاً خلاصةً لها، وعرضْتُ في هذه الخلاصةِ أهمَّ أسبابِ تبعيةِ الأتْباع واستضعافِهم، وأهمَّ أسبابِ تجبرِ المتبوعين واستكبارهم، وأشهرَ أساليبِ المتبوعين في إخضاع الأتْباع وإغوائهم ، وأشهرَ ألوانِ الاتِّباع ومظاهره، واشتراكَ الأتْباع مع المتبوعين في الهلاكِ في الدنيا، والعذاب في النار في الآخرة. وذكرتُ كيفيةَ التخلصِ من أَسْرِ التبعية، ودعوتُ إلى الاستفادةِ من الفرصة المتاحة في الدنيا، قبلَ أنْ تفوتَ الفرصة، وتتحققَ الندامةُ والحسرةُ في الآخرة.

أقدمُ هذه الدراسةَ القرآنية لمسألة الأتْباع والمتبوعين، عسى اللهُ أنْ ينفعَ بها، وأنْ يفتحَ بها القلوبَ والآذانَ والعيون.

وأسألُ اللهَ أنْ يتقبلَ عملي بقبولٍ حسن، وأنْ يجعلَه خالصاً لوجهه الكريم، وأنْ يَحشرني في زمرةِ النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وأنْ يُعيدَ هذه الأُمةَ إلى دينها وقرآنِها وإسلامها، وأنْ يفكَّ أَسْرَها من التبعيةِ لغيرها، لتعودَ لها القيادةُ والريادة.

وأَختمُ هذه المقدمةَ بدعاءِ الرسول ﷺ، الذي كان يدعو به كثيراً: «اللهمَّ اجعل القرآنَ ربيعَ قلوبنا، ونورَ صدورِنا وذهابَ همومِنا، وجَلاءَ أَحزاننا، وارزقْنا تلاوتَه آناءَ الليلِ وآناءَ النهار، وعلِّمْنا منه ما جهِلْنا، وذكِّرْنا منه ما نسينا، واجعلْه حجةً لنا يومَ القيامة.».

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الدكتور
صلاح عبد الفتاح الخالدي

السبت ١١/١١/١٤١٦ هـ
٣٠/ ٣ /١٩٩٦ م

(١)

أهمية موضوع التبعية

«التبعية» قضيةٌ خطيرة، ومسألةٌ حياتية هامة، من أهم وأخطر القضايا التي يعيشها الناس دائماً، ويتفاعلون معها، سلباً أو إيجاباً، لا تنفكُّ عنهم، ولا تنفصلُ عن حياتهم، مهما كان مستواهم الحضاري، في أي زمان ومكان.

التبعيةُ لمن؟ مَنْ يتبعُ مَنْ؟ وفي ماذا يتبعه؟ مَنْ هم الأتْباع؟ ومَنْ هم المتبوعون؟ ولماذا يكون فلانٌ متبوعاً مُطاعاً؟ ولماذا يكون مَنْ وراءَه تابعين له؟ ما هي مظاهرُ هذا الاتّباع وألوانه؟ وما هي أنواعُه وصوره؟ وما هي أخطارُه وآثاره؟ وما هي سلبياتُه وإيجابياته؟ وما هي ثمرتُه ونتيجتُه في الدنيا؟ ثم ما هي نهايتُه يومَ القيامة؟

«الأتْباعُ والمتبوعون» موضوعٌ قرآني، من موضوعات القرآن البارزة، التي عرضَها القرآنُ وناقشها وعالجها. موضوعٌ قرآني عرضه القرآنُ عرضاً «تصويرياً» حياً، وناقشه القرآنُ نقاشاً موضوعياً علمياً، وعالجه القرآنُ علاجاً ناجحاً محدداً.

إنَّ «التبعيةَ» التي يقومُ بها الأتْباع للمتبوعين مسألةٌ حياتية

واقعية، ومشكلةٌ عملية اجتماعية، وقعتْ عند الأقوامِ والأمم في الماضي، وتحدثَ القرآنُ عن نماذجَ وأمثلةٍ وعيناتٍ لها، وهي مسألةٌ وقضيةٌ حياتية واقعية معاصرة، نشاهدُها عند الدول والشعوب في هذا الزمان، تتبعُ فيها الشعوبُ والجماهير سادَتها وكبراءَها وزعماءَها، وتجعلُهم أئمةً متبوعين لها. وستبقى مشكلةً وقضيةً للأجيال القادمة، وستمارسُها الشعوبُ والأقوام في القرون التالية!

إنَّ البشريةَ لن تنفكَّ عن قضية التبعية، ولن يخلو زمانٌ أو مكان ـ في الماضي والحاضر والمستقبل ـ عن وجودِ جماهيرَ غفيرةٍ من «الأتباع» المطيعة المستسلمة، ووجودِ «ملأ» من القادة والسادة والزعماء «متبوعين» لأولئك الأتْباع!

إن «التبعيةَ» قضيةٌ مؤثرة، لها أبعادٌ عقيدية واجتماعية، ومسلكيةٌ وأخلاقية، وسياسيةٌ واقتصادية، ومحليةٌ وعالمية، وداخليةٌ وخارجية!

للتبعيةِ آثارٌ ونتائجُ خطيرة، على المستوى الفردي والجماعي، والسياسي والاقتصادي، والأخلاقي والاجتماعي، والمحلي والدولي، والحضاري والمستقبلي!

لقد كان لوجودِ «الأتْباع والمتبوعين» عند الأمم السابقة، أثرٌ مباشرٌ على ما أصاب تلك الأمم من عقابٍ وعذابٍ ودمار وهلاك.

ولوجود «الأتْباع والمتبوعين» عند الشعوب والدول

المعاصرة، أثرٌ مباشرٌ على واقعِ هذه الشعوب والدول، وعلى المستوى الذي تعيشُه في حياتها، وله أثرٌ مباشر على ما ينتظُر هذه الأممَ والشعوبَ من أحداثٍ وتطورات في مستقبلها!

وكلُّ الدول المعاصرة تعيشُ هذه المسألة «الأتْباعَ والمتبوعين»، حتى تلك الدولَ الغربية التي تسمّى «الدول المتقدمة». والتي تقومُ أنظمةُ الحكم فيها على ما يسمى «الديمقراطية» وحكمُ الشعب، والعودةُ للشعب، واحترامُ إرادة الشعب، والرضوخُ لقرار الشعب، حتى هذه الدول «الديمقراطية» تعيشُ قضيةَ «الأتْباع والمتبوعين» في صورةٍ من الصور، ولونٍ من الألوان، ومستوى من المستويات المتفاوتة!.

«الأتْباعُ والمتبوعون» موجودون في كلِّ نظام معاصر، موجودون في النظام الأمريكي، والنظام البريطاني، والنظام الفرنسي، والنظام الألماني، والنظام الياباني، والنظام الصيني. وهذه هي أقوى الدول المعاصرة.

لكنَّ مسألةَ «الأتْباع والمتبوعين» أبرزُ ما تكون وجوداً، وأظهرُ ما تكون وضوحاً، وأخطرُ ما تكون مشكلة، في ما يُسمّى بدولِ العالم الثالث، وأنظمةِ الحكم القائمة في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية!

وإنَّ الأنظمةَ القائمةَ في عالمنا العربي والإسلامي تعيشُ هذه القضية - «الأتْباع والمتبوعين» - في أشدِّ صورها وأعنفها، وأقسى مظاهرها وأخطرها، ولها أثرٌ مباشر على أنظمةِ الحكم القائمة في

هذه الدول، وعلى «تسييرِ» أمورِ الحكومات، وقضايا الشعوب، ومظاهرِ الحياة في هذه الدول، ولها أثرٌ مباشرٌ على المستوى الذي وصلت إليه الأنظمةُ والشعوبُ في هذه الدول!!

في عالَمنا الإسلاميِّ المعاصر أَتْباعٌ كثيرون من الشعوب، يُعَدّون بمئاتِ الملايين، موجودون في مختلفِ المواقع والميادين، ويمثّلون مختلفَ التخصُّصاتِ والمجالات، منهم أفرادٌ وجماعات، ومنهم اقتصاديّون واجتماعيّون وسياسيّون وإعلاميّون وإداريّون، ومنهم رجالُ أحزابٍ ونَوادٍ وجمعيات.

وفي مقابل هؤلاء الأتْباعِ هناك متبوعون قليلون، هم «الملأُ» الذين يتولّون الأُمور، ويوجِّهون الأتْباعَ إلى ما يريدون، ويأمرونَهم بما يريدون، ويتكرَّمون عليهم بما يريدون، ويُرْهِبونهم ويُرَغِّبونهم، وما على الأتْباعِ إلاّ الالتزامُ، والسمعُ والطاعة، والتأييدُ والولاء.

إنَّ قضيةَ «التبعية» قضيةٌ خطيرة، ومشكلةٌ عالمية معاصرة، وإنَّ مسألةَ «الأتْباع والمتبوعين» مسألةٌ عمليةٌ واقعيةٌ حياتيةٌ مُعاشة، تعيشُها الأمةُ الإسلاميةُ في هذا الزمان، في أكثرِ صورِها حِدَّةً وشدةً وخطورة.

وهذا الذي دفعَنا إلى النظرِ في آياتِ القرآن، ودراسةِ موضوع «الأتْباع والمتبوعين» فيه، وتدبُّرِ الآياتِ التي عرضتْه، وملاحظةِ آثارِ هذا الموضوع في الدنيا، ونتائجه في الآخرة، وتحليلِ المشاهدِ واللقطاتِ التي عرضتها الآيات، وملاحظةِ الأبْعادِ

الواقعية لها، وانطباقِها على أَتباع هذا العصر ومتبوعيه.

وهدَفُنا من هذا تحليلُ مشكلةِ «الأَتْباع والمتبوعين» تحليلاً قرآنياً ـ وهو التحليلُ الصحيحُ الصادق ـ وكشفُ خفايا المتبوعين وبيانُ سِرِّ انحرافِهم في ضوء آيات القرآن، وتحذيرُ الأَتْباع من نتائجِ تبعيتهم لمتبوعيهم، وهي نتائجُ خطيرةٌ في الدنيا، وفظيعةٌ مهلكَة في الآخرة، ودعوتُهم إلى التخليّ عن هذه التبعية، قبلَ أنْ يندموا عليها يومَ القيامة، وتوجيهُهم إلى اتِّباع الحق، المتمثلِ في القرآن والسنة وفهمِ سلف الأمة، والسيرِ مع رجال الحق وجنوده، ليكونوا أَحراراً أعزة كراماً في الدنيا، وليكونوا سعداءَ فائزين منعَّمين في الجنة: ﴿**ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً**..﴾.

• • •



(٢)
تعابير القرآن حول التبعية

قلنا إنَّ قضيةَ «الأتْباعِ والمتبوعين» قضيةٌ قرآنية، وموضوعٌ من موضوعات القرآن، عرضَها وعالجَها وحلّلها.

وقد عبَّر عنها القرآنُ بعدةِ تعابير، وقدَّمَها في ألفاظ ومفردات مختلفة.

من تعابيرِ القرآن حولها: الاتّباع، الاستضعاف، الاستكبار، الاقتداء، الائتساء، الاقتران، الإضلال، الإمامة، الخلة.

وننظر فيمايلي نظرةً موجزةً في أهم هذه التعابيرِ القرآنية، ونقدمُ معناها بإيجاز، لننتقلَ منها إلى موضوع الاتّباع في القرآن.

١ ـ الاتّباع في القرآن:

وردتْ مادةُ «تَبِعَ» واشتقاقاتُها وتصريفاتُها مراتٍ عديدة في القرآن، وسنتكلمُ عن أهم هذه الاشتقاقات والتصريفات والحالات، المتعلقةِ بموضوع هذا البحث، في المبحثِ القادم، إن شاء الله.

قال الامامُ ابن فارس في كتابه الفريد «معجم مقاييس اللغة»

عن معنى «تَبِع» في اللغة: «التَّبْعُ: التُّلُوُّ والقَفْوُ. تقول: تبعتُ فلاناً، إذا تلوته. وتقول: أَتْبَعْتُ فلاناً، إذا لحقْتَه.»[1]

وقال الإمامُ الراغب الأصفهاني في كتابه الفذ «مفردات ألفاظ القرآن» عن «تبع» في القرآن: «يقال: تَبِعه واتَّبَعه: قفا أثرَه.

والاتِّباعُ وقفْوُ الأثر يكون تارةً بالجسم.

ويكون تارةً بالارتِسام والائْتِمار. وعلى هذا قوله تعالى: ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجاثية: ١٨].

ويقال: أَتبعه. إذا لحقَه. وعلى هذا قوله تعالى: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ [الشعراء: ٦٠].

و«تُبَّعٌ» كانوا رؤساء. سُمّوا بذلك لاتِّباع بعضهم بعضاً في الرياسة والسياسة.

وقيل: «تُبَّعٌ» ملك. يتبعُه قومُه. والجمع: تَبابِعة. قال تعالى: ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ [الدخان: ٣٧].

والتَّبَـعُ: الظِّـلّ. سمـي بـذلـك لأنـه يتبـعُ صـاحبـه، ولا يفارقه..»[2].

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ١: ٣٦٢.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني بتحقيق صفوان داوودي: ١٦٢ـ١٦٣.

٢ ـ الاقتداء في القرآن:

الاقتداءُ مشتقٌّ من «قَدْوٌ».

قال ابن فارس في المعنى اللغوي للكلمة: «قَدْوٌ: يدلُّ على اقتباسٍ بالشيء واهتداء، ومُقادرةٍ في الشيء حتى يأتيَ به مساوياً لغيره.

يقال: هذا قَدىٰ رمح: أي: قَيْسُ رمح. وفلانٌ قدوة: أي: يُقتدىٰ به.

والقَدْوُ: هو الأصلُ الذي تتشعبُ منه الفروع.» [١].

إنَّ معنى «الاقتداء» في اللغة هو: اقتباسُ الشيء من آخر، والاهتداءُ به، والسيرُ على طريقه، والتقديرُ الدقيقُ الصحيحُ للأفعال والأقوال، بحيث تكون مساويةً لأقوالِ الشخص الآخر الذي يقتبسُ منه وأفعاله، ويَهتدي بأفعاله.

وقالَ الإمامُ السمين الحلبي في كتابه «عمدة الحفاظ» عن معنى الاقتداء في القرآن: «الاقتداء: الاتّباع. ومنه: الاقتداءُ بالإمام في الصلاة. وذلك أنْ يُتابعَ المأمومُ الإمامَ في أفعاله، فلا يتقدمُ عليه ولا يتأخر عنه، ولا يَزيدُ عليه ولا ينقصُ منه.» [٢].

وقد وردَ «الاقتداء» مرتيْن في القرآن:

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٥ : ٦٦.

(٢) عمدة الحفاظ ٣ : ٣٣٦.

مرةً في الاقتداءِ الإيجابيِّ الخيّرِ النافع، ومرةً في الاقتداءِ السلبيِّ السيء.

قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ۗ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩ ـ ٩٠].

الكلامُ في الآيتيْن عن مجموعةٍ من الأنبياءِ والرسلِ الكرام، عليهم الصلاة والسلام، ذُكرتْ مجموعةٌ من أسمائهم في الآيات السابقة [الأنعام: ٨٣ ـ ٨٨].

إنَّ اللهَ يأمرُ رسولَه محمداً ﷺ بالاقتداء بمن سبقَه من الرسل والأنبياء، واتّباعِهم في الهدى والدعوة، والصبرِ على تكاليفِ الدعوة ومشقات الطريق: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾

وهذا هو الاقتداءُ الإيجابي، والاتّباعُ النافع، حيث يتّبعُ المقتدي القدوةَ الذي أمامه، في طريقِه وأقواله وأفعاله.

و﴿اقْتَدِهْ﴾ في الآية أصلهُ فعلُ أمر، مبنيٌّ على حذفِ حرف العلّة. تقول: اقتدى، يقتدي، اقتدِ.

والهاءُ في ﴿اقتده﴾ ثابتةٌ في حالتي الوصلِ والوقف، على قراءةِ عاصم ونافع وابن كثير وأبي عمرو.

وهذه الهاءُ في ﴿اقتده﴾ تسمى: هاءَ السكت، وهاءَ الوقف،

وهاءَ الاستراحة، وهاءَ بيان الحركة [1]!

أما الاقتداءُ السلبي، واتّباعُ الكفار في الكفر والشرك، فقد وردَ في قول الكفارِ وإصرارِهم على الكفر، مقتدين بآبائِهم وأجدادِهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الزخرف: ٢١ـ٢٥]

إقتداءُ الكفار المترفين بآبائِهم الكفار، واتّباعُهم لهم في شركهم وضلالِهم، كان مانِعاً لهم من الاستجابةِ لدعوةِ الرسل، واتباعِهم في الحق.

وكان هذا الاقتداءُ السلبيُّ الضارُّ وَبالاً وعذاباً على أصحابه، وسبباً في لعنتِهم وخلودِهم في نار جهنم!!!

٣ ـ الائتساء في القرآن:

«الائتساءُ» مشتقٌ من: «أسْو»

قال ابن فارس في معنى «أسْو» في اللغة: «أَسْوٌ: يدلُّ على

---

(١) انظر كتاب «الموضح في وجوه القراءات وعللها» لابن أبي مريم الشيرازي ١ : ٤٨٤.

المداواةِ والإصلاحِ. تقول: أسوتُ الجرح. إذا داويتَه. ولذلك يسمى الطبيبُ: الآسي.

وتقولُ: أسوتُ بين القوم: إذا أَصلحتَ بينهم.

وتقول: لي في فلانٍ أُسوة. أي: قدوة، لأني أَقتدي به.»[1].

وكأنَّ الإنسانَ الصالحَ عندما يأتسي بآخرَ أفضلَ منه، ويقتدي به، يُصلحُ حياتَه وفق سيرةِ الإمام القدوة، ويعالجُ أخطاءَه التي يرتكبها، ويُداويها ويأسوها بهذا الاتّساء والاقتداء.

وقال الإمامُ السمينُ الحلبي عن الاتِّساء والأُسوة في التعبير القرآني:

«الأُسوةُ مثلُ القدوة. وهي الحالةُ التي يكونُ الإنسانُ عليها في اتِّباع غيره، سواءٌ اتَّبعه في حُسنٍ أو قُبح، في نفعٍ أو ضرّ.

تقول: تأسَّيتُ به. أي: اتبعتُه في فعله. مثل: اقتديتُ به..»[2].

والأُسوةُ كالقدوة تطلقُ على الإيجابيِّ والسلبي، فقد يكونُ الاتّساءُ إيجابياً نافعاً حسناً، إذا ائتسى بالصالح، وسارَ على طريقه. وقد يكونُ الاتِّساءُ سلبياً ضاراً سيئاً، وذلك إذا ائتسى بالطالح السيء.

---

(١) معجم مقاييس اللغة ١ : ١٠٥.

(٢) عمدة الحفاظ ١ : ١٠١.

ولكن الأُسوةَ في القرآن لم تَرِدْ إلا في الجانبِ النافع، والاتّساءُ وردَ في سياق المدحِ والثناء، والحثِّ والندبِ والإرشاد.

وردتْ كلمةُ «أسوة» في القرآن ثلاثَ مرات، وهي في المرات الثلاث موصوفةٌ بأنها حسنة: «أسوة حسنة»، وهي دعوةٌ من الله للمؤمنين الصالحين كي يأتَسوا ويقتدوا بالأنبياء وأتْباعِهم في الولاءِ والبراء والمواجهة والجهاد.

يأمرُ اللهُ المؤمنين بالاتّساءِ بإبراهيم عليه السلام، والذين معه، في مفاصلتِهم لقومهم الكفار، وبراءتِهم منهم. قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾

[الممتحنة: ٤ ـ ٦].

الأُسوةُ الحسنةُ في إبراهيم والذين معه، مذكورةٌ في هذه الآيات مرتين، وهي واجبةٌ على المسلمين، المقتدين بإبراهيم عليه السلام، المتَّبعين له، المُؤتَسين فيه.

وفي المرةِ الثالثةِ لذكرِ الأُسوةِ في القرآن يرشدُ اللهُ المسلمين إلى الاتّساءِ برسول الله محمد عليه الصلاة والسلام. وذلك في

قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

على المسلمين أنْ يأتَسوا برسول الله ﷺ، في كل جانبٍ من جوانبِ حياته، وفي كلّ لونٍ من ألوانِ سيرته، فلهم فيه أسوةٌ حسنة، عليه الصلاة والسلام.

أما الأسوةُ السيئة المتمثلةُ في اقتداءِ أهلِ الباطل بأئمةِ الضلال واتسائهم به، واتِّباعِهم لهم، فإنها لم تُذكرْ في آياتِ القرآن.

٤ ـ القرين في القرآن:

القرينُ من القَرْن والاقتران، والقَرْنُ هو الجمع، والاقترانُ هو الاجتماعُ.

قال الإمامُ الراغب في معنى هذه المادة: «الاقترانُ كالازدواج، في كونه اجتماعَ شيئيْن، أو أشياء، في معنى من المعاني.»[1].

فالقَرينُ هو الذي يلتقي مع قرينه، ويجتمعُ معه في بعضِ الصفات. فيشتركان معاً في تلك الصفاتِ أو الأشياء.

وسنةُ الله تعالى أنَّ كلَّ مَنْ رفضَ طريقَ الله. وتخلّى عن صحبةِ الأخيار الصالحين، ولم يقتدِ ويأتسِ بالأنبياء، فإنَّ البديلَ

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن: ٦٦٧.

له هو الشيطان، حيث يكونُ الشيطانُ قريناً له، يقترنُ معه، يصاحبه ويتابعُه، ليزينَ له الباطل، ويدعوَهُ إلى الشر.

وآثارُ اختيارِ الشيطان قريناً على هذا البائسِ الخاسر، سجَّلَها قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ۝٣٦ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ۝٣٧ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ [النساء: ٣٦ ـ ٣٨].

هذه هي الحقيقةُ القرآنيةُ القاطعة، لمن يرضى أنْ يقترنَ مع الشيطان، ويجتمعَ معه، ويتبعه: ومن يكن الشيطان له قريناً، فساء قريناً.

لقد شاءَ اللهُ الحكيمُ وفقَ سنتِه الربانيةِ المطَّردة، التي لا تتبدلُ ولا تتحول، أنَّ كلَّ مَنْ أعرضَ عن ذكرِه وعبادته وطاعته، ورفضَ اتِّباعَ رسله، وتنفيذَ أوامره، فإنه يقيضُ له شيطاناً، ويوجِّهُه إليه، ويكون هذا الشيطانُ قريناً ملازِماً له، لا يفارقُه ولا يتركُه، بل يُديمُ الوسوسةَ وتزيينَ الشر له، ويومَ القيامة يتمنَّى هذا البائسُ المعرِضُ عن ذكر الله، لو لم يتعرفْ على شيطانِه قرينه، ولو كان بينهما مسافةٌ بعيدةٌ، بُعْدَ المشرقين.

وردَ هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝٣٦ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝٣٧ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَـٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ

﴿ٱلْقَرِينُ ۝٣٨ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦ ـ ٣٩].

وهذا القرينُ المضلُّ يتبرأُ من صاحِبه يومَ القيامة، لكنَّ ذلك لا ينفعُه. قال تعالى: ﴿۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝٢٧ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ۝٢٨ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٧ ـ ٢٩].

أما المؤمنُ الصالح، فإنه قد يكونُ له شخصٌ غيرُ صالح، تربطُه به صلةُ قرابةٍ أو زمالةٍ أو عمل، فيلتقيان ويجتمعان، ويدعو هذا الزميلُ الرجلَ المؤمنَ إلى الكفر أو المعصية، باعتبارِه قريناً صديقاً له، ولكنَّ المؤمنَ يرفضُ أنْ يسمعَ أو يستجيبَ له، ويبقى على إيمانِه وطاعته.

عندها لا تضرُّه معرفةُ هذا الشخص أو زمالته، ويفترقانِ في المصير في الآخرة، فهذا المؤمنُ الصالحُ مع إخوانه الصالحين في الجنة، وذاك الكافرُ مع الشياطين والكافرين في النار.

ويدورُ بين هذيْن الشخصيْن حوارٌ عجيبٌ في الآخرة، سجَّلَه قولُه تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٥٠ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ۝٥١ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٥ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ۝٥٧ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٥٩ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٠ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات: ٥٠ ـ ٦١].

٥ ـ الإضلال في القرآن:

تخبرُنا آياتُ القرآن أنَّ الملأ المتبوعين، الذين يقتدي ويأتسي بهم أَتْباعُهم، يقومون بإضلالِ هؤلاء الأتْباع وإغوائهم، فيضِلُّ الأتْباع، ويُتابعون سادتَهم وكبراءَهم على الباطل، ويومَ القيامة، يقفُ هؤلاء الأتباعُ على مقدار الخسارة التي جَنَوْها من متابعتهم لكبرائهم، فينسبونَ لهم الإضلال. ويشتمونَهم ويلعنونَهم، ويتبرءون منهم! لكن بعد فوات الأوان!!!

من الآياتِ التي تتحدثُ عن إضلالِ المتبوعين لأتْباعِهم، وعن النهايةِ الأليمةِ لكلٍّ من الضالِّين والمضِلِّين، هذه الآيات:

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ٩٦ ـ ١٠١].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ

شَيْطَٰنٖ مَّرِيدٖ ٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الحج: ٣ ـ ٤].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ [فصلت: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ٦٦ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ٦٧ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا﴾

[الأحزاب: ٦٦ ـ ٦٨].

ويتحملُ المتبوعون المضلّون مسؤوليةَ إضلال الأتْباع، ويَحملـون أَوزارَهـم وأَوزارَ أَتْبـاعِهـم، ويُعـذَّبـون عنهـم وعـن أَتْباعهم، دون أَنْ يُعفى أَتْباعُهم من المسؤولية، ودون أنْ يَنقصَ من عذابهم من شيء! قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾

[النحل: ٢٤ ـ ٢٥].

٦ ـ الخُـلّة في القرآن:

وردت الخُلَّةُ في القرآن بمعنى الصداقةِ والمودةِ والمتابعة، وتحدثَتْ بعضُ الآيات عن الخُلَّة التي تكون بينْ أهلِ الباطل، والتي تقودُ إلى العداوةِ والبراءةِ والتلاعن في النهاية.

والخلةُ والمودةُ قد تكونُ بين الأصدقاء والأخلاّء في الدنيا، أما في الآخرة فلا خلَّةَ بينهم.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

ولقد كان الكفارُ أَعداءً محاربين لرسولِ الله ﷺ، وكانوا حريصين على فتنتِه وإغرائِه لصدِّه عن الدين والدعوة، ولو فعَلَها واستجابَ لهم لأنْهَوْا معاداتِه واتخذوه خليلاً، ولكنَّ اللهَ ثبتَه على الحق. قال تعالى: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٧٣ ـ ٧٥].

وعندما تقومُ الخلةُ والصداقةُ والمودةُ بين أهل الباطل، فإنها لا تكونُ على أساسٍ سليم متين، وتكون اتِّباعاً للباطل، وتعاوُناً على الإثم والعدوان، وتنتهي بهم إلى العداوة، وعاقبتُها فيهم هي الحسرةُ والندامةُ يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾

[الزخرف: ٦٧ ـ ٦٨].

وقد تكونُ بين الأَتْباع والمتبوعين خلةٌ وصداقةٌ، فيصادِقُ ويخالِلُ شخصٌ آخرَ، ويتابعُه ويسمعُ له، فيصدُّه ذلك الخليلُ المتبوعُ عن الحق، ويَدْعوه إلى الباطل، ويذلك يخسرُ الخيرَ كلَّه. وعندما يُبعثُ هذا التابعُ يوم القيامة، ويقفُ على ما أعدَّه

اللهُ له من عذاب، ويَعرفُ دورَ خليلِه في إضلالِه وإغوائه، يتبرأُ منه، ويذوبُ حسرةً وندماً.

وقد سَجلت الآياتُ هذا الموقف يومَ القيامة. قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان: ٢٧ـ٢٩].

٧ ـ أئمةُ الضـلال في القرآن:

الإمامُ هو الذي يُؤتَمُّ به، سواء كان إنساناً أو كتاباً، وقد يُقتدىٰ بالإنسانِ الإمامِ في قولِه أو فعله. وقد يكون هذا الإمامُ إماماً قدوةً في الخير، وقد يكون إماماً قدوةً في الشرّ والباطل.

قال الراغب في المفردات: «الإمامُ: المُؤتَمُّ به، إنساناً كأَنْ يُقْتدىٰ بقولِه أو فعلِه، أو كتاباً، أو غيرَ ذلك، مُحِقاً كان أو مُبطلاً، وجمعُه أئمة.»[1].

قد يكونُ الإمامُ إماماً متبوعاً قدوةً في الخيرِ والهدى، كما حصلَ مع إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام، إمامِ الهدى والدعوة. قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وبنو إسرائيل كانوا مستضْعَفين في مصر عند فرعون، فبعثَ اللهُ لهم موسى عليه الصلاة والسلام نبياً، ليخلِّصهم من حالةِ

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن: ٨٧.

الاستعباد، ويَرتقي بهم ليكونوا أئمةَ هُدى. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٣ ـ ٢٤].

وقد يكونُ الأئمةُ أَئمةً متبوعينَ في الكفرِ والباطل والضلال، يَأْتَمُّ بهم مَنْ معهم، ويَقتدي بهم أَتْباعُهم، ويكونون تابعين لهم، منفِّذين لتعليماتهم في البغي والكفر والعدوان.

فكما أنَّ هناك أئمةَ هدى وإيمان، هناكَ أئمةُ كفرٍ وضلال. قال تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾

[التوبة: ١٢].

إبليسُ ـ مثلاً ـ إمامُ الكفار في الكفر والضلال والباطل، يأتَمُّ به ويتبعُه وينفذُ تعليماتِه كلُّ الكفار من شياطين الجن والإنس.

وفرعونُ إمامٌ لقومه من أئمةِ الكفر والضلال، سارَ أَمامَهم، واتَّبعوه هم وساروا خَلْفه، وما زالَ فرعونُ يقودُهم حتى دخلَ بهم النار. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٦ ـ ٩٩].

والملأُ من قوم فرعون كانوا أَئمةً متبوعين لأتْباعهم، ورضيَ الأتْباعُ السذجُ أنْ يأتموا بفرعونَ وجنودِه وحاشيته، وصار هؤلاء

الأئمةُ قادة، يقودون أتباعهم إلى النار، ويدعونَهم إلى النار. قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٣٨-٤٢].

٨ ـ ٩: الاستضعاف والاستكبار في القرآن:

إنهما خطّان متقابلان، وموقفان متضادّان في موضوع التبعية، أحدهما حالةٌ يعيشها الأتباع، والثاني حالةٌ متقابلةٌ يعيشُها الكبراءُ المتبوعون.

حالةُ الاستضعاف عند الأتباع، تقابلها حالةُ الاستكبارِ عند المتبوعين، وفريقُ الذين استُضْعِفوا عند الأتباع، مقابلَ فريقِ الذين استكبروا عند المتبوعين.

والاستضعافُ والاستكبارُ انحرافانِ نفسيّان شاذّان، صادران عن نفوسٍ منحرفةٍ شاذة، ليست سليمة ولا سوية.

الكبراءُ المتبوعون انتفشَتْ نفوسُهم، فرأوا أنفسَهم أكبرَ من غيرهم، فأُصيبوا بمرضِ الاستكبار، وتصرَّفوا مع مَنْ وراءَهم

بتكبُّرٍ واستعلاء، وإهنةٍ وإذلال، واستعْبَدوهم واحتقروهم.

والأتْباعُ الأذلاء، رأوا أنفسَهم أقلَّ من أسيادهم وأدنى وأحَقر، فأُصيبوا بمرض الاستضعاف، واستسلموا لأسيادِهم بذلةٍ وهوان، وكانوا معهم مجردَ دُمَىً لا رأْيَ لها ولا اختيار.

وقد أشارتْ آياتُ القرآن التي تحدثتْ عن الأتْباع والمتبوعين إلى هاتينْ الحالتينْ: الاستضعافِ عند الأتْباع، في مقابلِ الاستكبارِ عند المتبوعين، وذلك في معرضِ ندمِ الذين استُضْعِفوا وحسرتِهم يومَ القيامة، وبراءتِهم من أسيادِهم المستكبرين.

ونكتفي في هذا المقامِ بقراءة هذهِ الآيات، التي تعرضُ هذيْن المشهديْن يوم القيامة، لنَعودَ لهذه الآيات محلِّلين فيما بعد إن شاء الله:

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۝٣١ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ۝٣٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ: ٣١ ـ ٣٣].

وقال تعالى: ﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ

لَهَدَيْنَٰكُمْۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾

[إبراهيم: ٢١].

بهذا نُنْهي هذه الجولةَ السريعةَ مع أهمِّ التعابير القرآنية التي وردتْ بمعنى قريبٍ من معنى الاتِّباع والتبعية، وهي: الاقتداء، والاتِّساء، والاقتران، والإضلال، والخُلَّة، والإمامة، والاستضعاف، والاستكبار.

• • •

(٣)

مع الاتِّبــاع في العرض القرآني

مادةُ «تَبِع» مذكورةٌ في القرآن مراتٍ عديدة، وبعدة اشتقاقاتٍ وتصريفات. وقد يكونُ ورودُها في سياق المدح، وذلك إذا كان الاتباعُ محموداً إيجابياً، وقد يكون ورودُها في سياق الذم، وذلك إذا كان الاتباعُ سلبياً في الباطل!

وردَ في القرآنِ ثلاثةُ أفعالٍ مع تصريفاتِها.

الأول: تَبِعَ، يَتْبَع، تابع، تـابعون، تَبَع، تَبيع.

الثاني: أَتْبَع، يُتْبِع.

الثالث: اتَّبَعَ، يَتَّبع، اتَّبِـعْ، اتِّباع. متَّبَع.

معنى «تَبِـع»: قَفَا الأَثَر.

تقول: تبع فلانٌ فلاناً: إذا مشى خلفه وقفا أثره.

ومعنى «اتَّبَع»: تَبِـع وتابَع وقفا الأثر.

إن «اتَّبع» أكثرُ توكيداً من «تَبِع»، وهو خماسي، بينما «تَبِع» ثلاثي. والفعلان يدلان على معنى المتابعة والاقتداء.

قال الامامُ الراغب في المفردات: «تَبِعَه، واتَّبَعه: قفا أثرَه.

وذلك تارةً بالجسم، وتارةً بالارتسامِ والائتمار.»[1]

تَبِعَ واتَّبَعَ عند الراغب بمعنى واحد، إلا أنّ «اتَّبع» أكثرُ توكيداً على المتابعة.

والاتِّباعُ عند الراغب نوعان:

الأول: اتِّباعٌ ومتابعة بالجسم، وهو الاتِّباع المادي، يقال: تَبِعِ فلان فلاناً واتَّبعه: إذا سار خلفه، واقتفى أثره.

الثاني: اتِّباعٌ ومتابعةٌ بمعنى الاستجابة والامتثال، وتنفيذِ الأمر، والالتزام بالتكليف. وهذا معنى كلام الراغب «وتارةً بالارتسام والائتمار» يقال: اتَّبعَ فلانٌ الحق. أي: التزمَ به واستجابَ له.

أما الفعلُ الرباعي: «أَتْبَعَ» فهو بمعنى: لَحِق. يقال: أَتْبَعَ فلانٌ فلاناً، إذا لحقَ به، سواء ظفَر به أم لا.

مع تصريفـات فعل «تَبِـعَ» في القرآن:

وردَ في القرآن التصريفاتُ التالية للفعل الماضي الثلاثي. تَبِـعَ، وهي: تَبِـعَ. يَتْبَع. تابِـع. تابِعون. تَبَعٌ. تَبيع.

ونقفُ وقفةً موجزةً مع هذه التصريفات:

١ ـ تَبِـعَ: الفعلُ الماضي الثلاثي: وردَ سبعَ مرات.

مرتان منها في الاتباعِ الإيجابيِّ المحمود، بحيث يتبعُ المؤمنُ

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن: ١٦٢.

الصالحُ هدى الله، ويقتدي بالنبي ويتابعُه في طريق الخير.

قال تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

وقال إبراهيم عليه السلام عمن تبعه ومن عصاه: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦].

ومرةً من المرات السبع ينفي اللهُ متابعةَ أهل الكتاب للنبي ﷺ، ويبينُ إصرارَهم على الضلال. وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ [البقرة: ١٤٥].

والمراتُ الأربعةُ الباقية في الاتباعِ السلبيِّ المذموم، ومتابعةِ الشيطان على الباطل، وعاقبةِ اتباع الكافرين له.

قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٣].

أو في متابعةِ أهل الكتاب على كفرهم، حيث كان يوصي بعضُهم بعضاً قائلين: ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ [آل عمران: ٧٣].

٢ ـ يَتْبَعُ: الفعل المضارع من «تَبِـع»: وردَ مرتيْن.

ينهى الله المؤمنَ الذي يتصدقُ بصدقةٍ عن إتْباعِ صدقته بالأذى، وذلكَ بأن يمنَّ على المحتاج الذي يُعطيه صدقتَه.

قال تعالى: ﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ [البقرة: ٢٦٣].

وأخبرَ اللهُ في المرةِ الثانية عن بعضٍ مشاهد يوم القيامة، حيث تقعُ حركتان متتابعتان، إذ يُنفخُ في الصور النفخةُ الأولى، ثم يُنفخُ فيه النفخةُ الثانية.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾

[النازعات: ٦ ـ ٧].

عند نفخةِ الصَّعق ـ وهي النفخةُ الأولى ـ تَرجفُ الأرض، وتدكُّ الجبال، وعند نفخةِ البعث ـ وهي النفخةُ الثانية ـ يُبعثُ الناس أحياءً من قبورهم.

واعتبرت الآياتُ نفخةَ البعث رادفةً تردفُ نفخةَ الصعق، وتأتي بعدها. فهي تَتْبَعُها وتَليها بهذا الاعتبار، وبذلك تكون رادفةً للراجفة.

٣ ـ تابِـعْ: اسمُ الفاعل من الفعل الثلاثي «تَبِع». وقد وردَ في القرآن مرتين، والمرتان في آية واحدة، وهو مسبوق في الآية بالفعل «تَبِـع». وذلك في سياقِ الحديثِ عن تميُّزِ المسلمين بالقبلة، وتقريرِ عنادِ أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وعدمِ اتِّباعِهم للمسلمين في القبلة الحق.

قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾

[البقرة: ١٤٥].

تقررُ الآيةُ أن أهلَ الكتاب معرضون عن الحقِّ عناداً، ومهما

قدمَ لهم رسولُ الله ﷺ من آياتٍ وأدلةٍ وبراهين أنه على حق، وأنَّ قبلته هي الحق، فلن يُذعنوا للحق، ولن يتَّبعوا قبلته: ﴿ما تبعوا قبلتك﴾.

وبما أنَه على حق، وبما أن أهل الكتاب على باطل، فلن يتبعَ قبلتَهم، وكيف يتابعُهم على الباطل، ويكون تابعاً لهم في ذلك؟: ﴿وما أنت بتابع قبلتهم﴾.

وأهلُ الكتاب صنفان، يهود ونصارى، وبينهم من العداوةِ والبغضاء ما بينهم، وكلٌّ منهم يرى أنه على حق، وأنَّ خصمه على باطل، ولهذا لا يتابعُ أحدهم الآخر، عناداً وعصبية: ﴿وما بعضهم بتابع قبلة بعض..﴾.

ومَن كان على حق لن يتخلّى عن الحق. ولن يتبعَ الهوى والباطل، وأهلُ الكتاب أتباعُ هوى، ولذلك جاء التحذير من متابعتهم في الآية في صورةِ تهديد: ﴿ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين﴾.

وأُشيرُ إلى أن الآيةَ قد أوردتْ تصريفاتِ «تَبِـع» أربعَ مرات، وجاءت الكلمةُ في كل مرة من هذه المرات في موضعها المناسب، متناسقةً مع ما قبلها وما بعدها، وليس فيها حشوٌ أو تكرارٌ أو اختلاف!

٤ ـ التابعون: جمع مذكر سالم، مفردةُ «تابع» الذي تحدَّثْنا عنه قبل قليل.

وقد وردتْ هذه الصيغةُ مرةً واحدة، وذلك أثناءَ الحديثِ عن

أمرِ المؤمنات بغضّ البصر وحفظِ الفرج، وعدم إظهارهن الزينة إلا على محارمِهن من الرجال، أو نسائِهن، أو ما ملكت أيمانهن، أو خدمِهن من الرجال الذين لا حاجةَ لهم عند النساء، أو الأطفالِ الصغار الذين لا يلتفتون للبُعْد الجنسيّ عند النساء!

قال تعالى في بيان مَنْ يجوز للمؤمنات أنْ يكشفن عن زينتهن أمامهم: ﴿. . . أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ. . .﴾ [النور: ٣١].

والمرادُ بالتابعين المذكورين في الآية الرجالُ الذين يتبعون المرأة الحرة، ويعملون عندها، كالأَتْباع والأُجَراء والموظفين والعاملين عندها، ويُشترط في جوازِ كشفها لزينتها أمامَ تابعيها الرجال، أن يكونوا من غير أُولي الإربةِ للنساء، أي ليس عندهم حاجةٌ نفسية، ولا أَرَبٌ جنسي، ولا شهوةٌ ولا رغبةٌ في النساء، كأَنْ يكونوا فاقدي الشهوةِ والحاجةِ للجنس، مغفَّلين أو ساذَجين أو مُصابين بالعُقْم أو العِنَّة أو الخِصاء!

٥ ـ التبَع: وردت كلمةُ «تبَع» مرتين في القرآن، وهي في المرتين في سياقٍ واحد، وهو ندمُ المستضعفين يومَ القيامة على متابعتهم للمستكبرين الظالمين، ومطالبتُهم لأسيادهم بدفعِ عذابِ الله عنهم.

قال تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾

[إبراهيم: ٢١].

فهل يوجَدُ هناك «تَبيع» يُتابِعُ قضيتكُم عند الله؟ ويُطالب بحقكم أو يريدُ أنْ يأخذَ بثأركم؟ إنكم لن تجدوا تبيعاً يقوم بذلك ويتابعه!!

مع تصريفـات فعل «أتْبع» في القرآن:

«أَتْبَعَ» رباعي من «تَبع» مَزيدٌ بالهمزة.

ومعنى «أَتْبَعَ» لَحِق. يقال: أَتْبَعَه بمعنى: لحقه.

وردَ الفعلُ «أَتْبع» في القرآن في صورتين:

الأولى: الفعلُ الماضي «أَتْبَع». وقد ورد ثلاثَ عشرة مرة.

ثلاثٌ منها في الإخبارِ عن قوةِ ذي القرنين، وأخذِه بأسباب القوة التي آتاه الله إياها، واستخدامِه الجيدِ للأسباب التي مكَّنه الله منها، في رحلاته الثلاث، إلى مغربِ الشمس، ثم مطلعِ الشمس، ثم بين السدين في الشمال.

قال تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤ ـ ٨٥].

وقد أخبرَ القرآن عن لحاقِ فرعون وجنوده بموسى عليه السلام وبني إسرائيل، وإتْباعِهم لهم جهةَ الشرق ليأخذوهم ويقْبضوا عليهم.

وورد هذا ثلاثَ مرات في سور: يونس وطه والشعراء.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾ [غافر: ٤٧].

ونُرجىءُ الحديثَ عن هاتين الآيتيْن إلى استعراضِنا لمشاهدِ الأتْباع والمتبوعين فيما بعد إن شاء الله.

ونشيرُ هنا إلى أنَّ «تَبَعاً» في الآيتيْن خبرُ «كان» منصوب. وأنَّ «تَبَعاً» جمعُ «تابع». مثل: خادِم، وجمعه خَدَم.

٦ ـ التَّبيع: وردتْ هذه الكلمةُ مرةً واحدة فقط، في سياقِ نسيانِ الكفارِ عهدَ الله عند الرخاء، ولجوئِهم له عند الحاجة، فيهددُهم اللهُ بأن يوقعَ بهم الضيقَ مرةً أخرى، فمن يدفعُ عنهم عذابَ الله؟

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ [الإسراء: ٦٧ ـ ٦٩].

ومَعنى التبيع: المُتابع، الذي يطالِبُ بحقّ، أو يريدُ الأخذَ بالثأر.

يقول الله للكفار: لو أنكم عدتُم للبحر مرة أُخرى، وأرسلَ اللهُ عليكم عواصفَ من الريح القاصف، وأَغرقكم بسببِ كفركم،

﴿ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۝٧٨ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٧ ـ ٧٩].

الثانية: الفعلُ المضارع: «يُتْبِعُ» ـ بضم الياء ـ وماضيه: أَتْبَع، أما المضارعُ المفتوحُ الياء «يَتْبَعُ» فماضيه هو الفعلُ الثلاثي: تَبِع.

وردَ المضارعُ «يُتْبِعُ» مرتيْن:

أخبرَ اللهُ أنه قد أهلكَ الكفارَ الأولين ودمَّرهم، وأنه أَلحقَ بهم الآخرين اللاحقين من الكفار.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٦ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْـَٔاخِرِينَ ۝١٧ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [المرسلات: ١٦ ـ ١٧].

وأخبر اللهُ عن المتصدقين الذين يتقبلُ اللهُ صدقاتهم، بأنهم الذين يُنفقون أموالَهم في سبيل الله. ثم لا يُتْبِعون ولا يُلْحِقون صدقاتِهم بالمنِّ والأذى، على مَنْ أنفقوا عليهم.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢].

مع تصريفـات فعل «اتَّبع» في القرآن:

«اتَّبَعَ» من مضاعفات فعل «تَبِع»، وهو مزيدٌ بالهمزة والتاء، على وزن «افْتَعَلَ». وقد ورد هذا الفعلُ على حالاتٍ عديدة، حوالي مائةٍ وخمسين مرة.

ووردَ على خمسِ تصريفات: فعل ماض، وفعل مضارع،

وفعل أمر، ومصدر، واسم مفعول.

ولما وردَ على حالته الفعلية ـ ماض أو مضارع أو أمر ـ أحياناً كان يُذكرَ مجرداً، وأحياناً كان يُسندُ إلى الفاعل الاسم الظاهر، وأحياناً يكون الفاعلُ ضميرَ متكلمٍ أو مخاطبٍ مفرد، أو متكلمين جمع، وأحياناً ضمير غائب مفرد أو جمع، وأحياناً ضمير مخاطب مفرد أوجمع.

فالفعل الماضي «اتَّبَعَ» وردتْ له في القرآن الحالاتُ التالية: اتَّبَعَ، اتَّبَعْتُ، اتَّبَعْتَ، اتَّبَعْتُمْ، اتَّبَعْتَهُمْ، اتَّبَعْتَني، اتَّبَعَكَ، اتَّبَعَكُما، اتَّبَعَنِ، اتَّبَعْنا، اتَّبَعْناكُمْ، اتَّبَعَني، اتَّبَعوا، اتَّبَعوك، اتَّبَعوهُ، اتَّبَعوهُمْ، اتُّبِعُوا.

ومجموعُ هذه الحالات سبعَ عشرةَ حالة، ومجموعُ مرات ورودها خمسٌ وخمسون مرة.

والفعلُ المضارع «يَتَّبِعُ» وردتْ له في القرآن الحالاتُ التالية:

أَتَّبِعُ، أَتَّبِعُكَ، أَتَّبِعُهُ، تَتَّبِع، تَتَّبِعانٌ، تَتَّبِعَنِ، تَتَّبِعوا، تَتَّبِعونَ، تَتَّبِعونا، نَتَّبِع، نَتَّبِعْكُمْ، نَتَّبِعُهُ، يَتَّبِع، يَتَّبِعُهُمْ، يَتَّبِعوكُمْ، يَتَّبِعون، يُتَّبَع.

وفعلُ الأمر «اتَّبِعْ» وردتْ له في القرآن الحالاتُ التالية:

اتَّبِعْ، اتَّبِعْني، اتَّبِعْها، اتَّبِعونِ، اتَّبِعوني، اتَّبِعوهُ.

أما المصدرُ «اتِّباعٌ» فقد وردَ مرتيْن في القرآن:

مرة في الاتِّباعِ المحمود، وقد وُصفَ بأنه اتِّباعٌ بالمعروف

وذلك في سياقِ وليِّ أمرِ المقتول عمداً. فإذا تنازلَ عن القصاص إلى الدية، فعليه أنْ يَتَّبِعَ غريمَه اتِّباعاً بالمعروف، وأنْ يطالبَه بالديةِ مطالبةً بالمعروف.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٧٨].

والمرةُ الثانية في الاتِّباع المذموم، حيث قُيِّدَ بأنه اتِّباعُ الظن، وذلك في سياقِ الإخبار عن دفاع الله عن عيسى بن مريم عليه السلام، وعدمِ قتْلِ اليهود له، واختلافِ فرقِ اليهودِ والنصارى في قتل عيسى أو صلبه، ما هو إلا اتباعٌ للظن، وليس عند أحدهم علمٌ بذلك، فكيف يتَّبعون الظنَّ مع البيانِ القرآني الواضح بذلك؟

قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٧ ـ ١٥٨].

واسمُ المفعول «مُتَّبَعون» وردَ مرتيْن في القرآن، في سياقٍ واحد، وهو إخبارُ الله لموسى عليه السلام، بأنْ يسريَ ببني إسرائيل، وأنْ يَخرجَ بهم من مصر ليلاً، قبل علْمِ جندِ فرعون بهم، وأنْ يسبقوهم نحو المشرق، لأنَّ فرعون وجنده سيلحقون بهم ويَتْبعونهم، وبهذا يكون موسى وبنو إسرائيل مُتَّبَعين.

قال تعالى: ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ [الشعراء: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ [الدخان: ٢٣ ـ ٢٤].

ووردَ في القرآن كلمة «متتابِعَيْن» وهي مُثَنّى اسمِ الفاعل «متتابع»، وفعله الماضي: تَتابع.

والتتابعُ هو: الموالاةُ والاتصالُ وعدمُ الفصل أو القطع. تقول: تتابعَ الشيء: أي توالى وتواصَلَ حدوثُه، بدون فاصلٍ أو مانع.

وذُكِرَ التتابعُ في القرآن في سياقٍ بيان كفارةٍ مخالَفَتين: كفارةِ القتل الخطأ، وكفارة الظهار.

فمَنْ قتَلَ مؤمناً خطأً، فعليه إعطاءُ الدية إلى أهلِ القتيل، ثم عليه الكفارة، وهي عتْقُ رقبة مؤمنة، فمن لم يجد الرقبةَ المؤمنة، فعليه صيامُ شهرين متتابعين.

قال تعالى: ﴿ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ ﴾

[النساء: ٩٢].

ومَنْ ظاهَرَ من امرأته، بأنْ شبَّهَها بأُمِّه أو أحد المحرمات عليه، كأنْ يقول لها: أنتِ عليَّ كظهر أمي. فعليه أنْ يَدفَعَ كفارةَ الظهار، والكفارةُ مرتبة، بأنْ يعتقَ رقبة أوّلاً، فإن لم يجدْ فعليه

صيامُ شهريْن متتابعيْن، فإن لم يستطعْ فعليه إطعامُ ستين مسكيناً.

قال تعالى عن صيام هذه الكفارة: ﴿فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا﴾.

ومعنى التتابع هنا: أنه على المسلمِ الذي يؤدي كفارةَ القتل أو كفارةَ الظهار أنْ يصومَ شهريْن هجريَّيْن قمريَّيْن متواصليْن، ولا يجوزُ له أنْ يفطرَ في أي يوم منهما ـ إلا إذا كان الإفطارُ بعذر شرعي ـ فإنْ أفطرَ يوماً بدون عذر، فقد نقضَ التتابعَ والتواصلَ والمولاة، وبطلَ الصيامُ الماضي، وعليه أنْ يبدأَ الصيامَ من جديد.

مِن هذه الجولةِ السريعة مع «الاتِّباعِ في العرض القرآني» نخرجُ ببعض الملاحظاتِ المرتبطةِ مع موضوع البحث «الأتباع والمتبوعون في القرآن»، منها:

١ ـ الاتِّباعُ في القرآن قد يكون اتِّباعاً مادياً، بأنْ يتابِعَ أحدٌ الآخرَ متابعةً ماديةً محسوسة، ويلحقَه بجسمه، ويسيرَ خلفه بخطواتِه، فيكون تابِعاً، ويكون مَنْ أمامَه مَتبوعاً، أو مُتَّبَعاً.

٢ ـ وقد يكونُ الاتِّباعُ في القرآن معنوياً، وهذا هو الغالبُ في وروده في القرآن، ويكون بمعنى المتابعةِ المعنوية، أي الاستجابة والامتثال والالتزام والموافقة والطاعة.

٣ ـ الاتِّباع المعنويُّ في القرآن قد يكون محموداً مطلوباً، وعاقبتُه هي الفوزُ والنجاة، وذلك إذا استجابَ المؤمنُ لهدى

الله، وأطاعَ رسلَه، وامتثلَ لأوامره.

٤ ـ وقد يكونُ هذا الاتباعُ المعنويُّ مذموماً، وعاقبتُه هي الهلاكُ والدمار والخسارة، وذلك إذا تابعَ المستضعفون المتبوعين الطواغيت، واستجابوا لهم، وذلّوا أمامهم.

وحديثُنا القادم عن المشاهد القرآنية التي تتحدث عن هؤلاء الأتباع والمتبوعين!!

● ● ●

(٤)

الأتبـاع والمتبوعون في سورة البقرة

تحدثتْ آياتُ السورة عن الأتْباع والمتبوعين بطريقتيْن:

الطريقة الأولى: تحدثتْ عن قضية «الاتِّباع» نفسه، سواء كان اتّباعاً إيجابياً طيّباً، أو كان اتباعاً سلبيّاً مذموماً.

والطريقة الثانية: عرضتْ فيها مشهداً مصوَّراً شاخصاً للأَتْباع والمتبوعين في جهنم يوم القيامة.

وسنمرُّ بآيات الاتِّباع، ثم نقفُ مع مشهد الفريقين يوم القيامة.

مع الاتِّبـاع في السورة:

١ ـ قال تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

تتحدثُ الآيةُ عن هبوط آدم وحواء إلى الأرض، وانقسام الناس أمام هدى الله، فهناكَ كافرون يرفضون اتِّباعه، ويسيرونَ مع الباطل. وهناك مؤمنون صالحون، يتَّبعون هدى الله، ويلتزمون به، وهؤلاء سعداء، لا خوفٌ عليهم لا هم يحزنون.

والاتِّباعُ هنا اتباعٌ محمودٌ طيب عاقبتُه الفوزُ والفلاح، والخلودُ في الجنة.

٢ ـ قال تعالى عن اليهود: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ. . ﴾ [البقرة: ١٠١ ـ ١٠٢].

تخبرُ الآيتان عن سوءِ اختيارِ اليهود واتِّباعهم، حيث رفضوا الإيمانَ بمحمد ﷺ، وهم يعلمون أنه رسولُ الله، وهو مصدقٌ لما معهم من التوراة، لم يتبعوه على الحق الذي معه، واختاروا الاتِّباعَ السيء الخاسر، حيث اتَّبعوا ما تخبرُ وتحدِّثُ الشياطينُ من أكاذيب عن سليمان عليه السلام. .

وهذا اتباعٌ سيء مذموم، وهو نيتجةٌ حتمية، وبديلٌ مرّ، فكلّ مَنْ رفضَ اتباعَ الحق ومتابعةَ الصالحين، سوف يتبعُ الباطل، ويتابعُ الشياطين!!

٣ ـ قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: ١١٩ ـ ١٢٠].

تقدمُ هذه الآياتُ حقيقةً قرآنيةً لرسول الله ﷺ ـ ولكل مسلمٍ مِن بعده ـ: إنَّ اللهَ بعثه بالحق رسولاً، بشيراً ونذيراً، فهو على

حقٌّ قاطع، أما الذين كفروا به وكذَّبوه من اليهود والنصارى فهم على باطل ـ لأنه يستحيلُ أنْ يكون على الحق، وأنْ يكون أعداؤه على حق أيضاً ـ إنه على هدى من الله، وهم على ضلال، وإنه على علم، وهم على جهل، وإنه على يقين، وهم على هوى.

وهؤلاء اليهودُ والنصارى لن يرضوا عن رسول الله ﷺ ـ ولا عن أيِّ مسلم من بعده ـ إذا تمسكَ بالحق وثبتَ على الهدى. لن يرضوا عنه حتى يتخلى عن الحق والهدى، ويتبعَ ملتهم الباطلة، ويتابعَهم على الجهل والضياع والهوى.

وإنْ حرصَ على طلبِ رضى اليهود والنصارى واتبعَ ملَّتَهم، فإنه يكون قد اتبعَ أهواءهم وتركَ هداه، وتابعَهم في جهلهم وتخلى عن العلم. وعندها يكون الخسرانُ والضياع، فمنْ ينصرُه من بأسِ الله؟ ومَنْ يدفعُ عنه عذابَ الله؟

٤ ـ قال تعالى عن حكمةِ تحويلِ القبلة من الكعبة إلى بيت المقدس، وذلك قبلَ إعادةِ القبلة إلى الكعبة: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: ١٤٣].

للهِ حِكَمٌ ربانيةٌ مرادةٌ من تحويل القبلةِ من الكعبة ـ التي كان المسلمون يستقبلوها في صلاتِهم في مكة ـ إلى بيت المقدس، فاللهُ يريدُ أنْ يمتحنَهم بهذا التحويل، ليُظهرَ لهم علْمَه المسبق، في مَنْ يتبعُ الرسولَ عليه الصلاة والسلام على التحويلِ الجديد،

ومَنْ يرفضُ اتِّباعه في ذلك، وينقلبُ على عقبَيْه، ويرتدُّ عن دينه.

إن الله بهذا التحويل يريد تقويةَ اتباعِ المؤمنين للحق، وتمتينَ متابعتهم لرسول الله عليه الصلاة والسلَام!

٥ ـ قال تعالى عن تميزِ المسلمين بالقبلةِ الحق، وإصرارِ أهل الكتاب على القبلة الخطأ: ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥].

تكرَّرَ الاتباعُ في هذه الآية أربعَ مرات، وذلك لأهميةِ التميزِ للحق وأهله، الذين يجبُ أنْ يتميزوا بكلِّ شيء، حتى بالقبلة التي يستقبلونها في صلاتهم، ثم يقوموا بمفاصلةِ أهلِ الباطل والهوى، وعدمِ متابعتِهم على الباطل.

إن الرسولَ ﷺ على حق، وقبلتَه ـ الكعبة ـ هي القبلةُ الحق، ولكنَّ أهلَ الكتاب من اليهود والنصارى متَّبعون للهوى والباطل، ولذلك لن يتبعوا القبلةَ الحق، ولن يتَّبعوا الرسولَ عليها مهما قدمَ لهم من أدلةٍ وآياتٍ وبراهين، والرسولُ عليه السلام لن يتبعَ قبلتهم الباطلة من باب أولى!

ثم هم فيما بينهم مختلفون متنازعون، ولكل منهم قبلة، لليهود قبلتُهم وهي باطلةٌ منسوخة، وللنصارى قبلتهم وهي باطلة

منسوخة، ومع ذلك لن يتبعَ بعضُهم بعضاً على قبلته، مع أن كلاً منهما على باطل.

فكيفَ يتخلى مَن كان على الحق والهدى عن القبلة الحق ويتبعُ أهلَ الباطل والهوى على باطلهم وهواهم؟ لو فعلَها لكان من الظالمين!!

٦ ـ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

ترسمُ الآيةُ طريقين، وتدعو المسلمين إلى اتِّباع الطريقِ المستقيم، وتحذرهم من متابعةِ الشيطان في الطريقِ المعوجّ.

الطريقُ المستقيم هو طريق الإسلام، ويجبُ عليهم أن يدخلوا في الإسلام كافة ـ والسِّلْمُ في الآية هو الإسلام ـ وأنْ يُحسنوا اتباعَ الرسول ﷺ فيه، وهذا الطريقُ يوصلهم في النهاية إلى الجنة.

وتحذرُهم الآيةُ من السير في الطريقِ المعوج، وتنهاهم عن اتباع خطوات الشيطان فيه، لأنَّ الشيطانَ لهم عدو مبين، وسيأخذُ بأيديهم وأقدامِهم ليجعلَهم في نارِ جهنم.

وتَصَوُّرُ منظرِ اتِّباعِ خطواتِ الشيطان مضحك، حيثُ نرى بخيالنا الشيطانَ يخطو ويمشي، ونرى أشخاصاً خلْفَه يحرصون على أنْ يَضَعوا أقدامَهم مكانَ أقدامِ الشيطان!!!

مع الأتباع والمتبوعين في السورة: براءة ومفاصلة وحسرات:

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٦٥ ـ ١٧٠].

تتحدثُ هذه الآياتُ عن أُناسٍ عَبدوا غيرَ الله، وجعلوا البشرَ الطواغيتَ أنداداً لله، واتَّبعوهم على الباطل، وتُقدمُ هذه الآياتُ مشهداً شاخصاً مصوَّراً للفريقين: الأتْباع والمتبوعين، يَعرضُ خزيَهم وندمَهم يوم القيامة، ويصوِّرُ براءةَ المتبوعين هناك مِن أَتباعِهم، وتمنّي الأتْباع لو قَدروا على أنْ يتبرَّءوا من متبوعيهم، ويُرينا الحسرةَ المؤلمةَ التي تعلو وجوهَ الأتْباع والمتبوعين.

وبعد تقديمِ هذا المشهدِ المؤثِّرِ لبراءةِ الأتْباع والمتبوعين

وحسرتهم يوم القيامة، والناسُ في غايةِ الانفعال والتأثُّر، تلتفتُ الآياتُ لهؤلاء المشاهدين المتأثِّرين، فتحذِّرُهم من اتِّباع الشيطان، وتأمرهم بحسنِ اتّباعِ شرع الله، والنفوسُ مستعدةٌ لتلقّي هذا التوجيهِ الرباني، وحُسْنِ التفاعلِ معه، لأنه يجيءُ في وقتِه ومكانِه المناسب.

ثم تَعرضُ الآياتُ نموذجاً لإصرار الكفار على اتّباعِ الباطل، ورفْضِ اتباعِ الحق، فعندما يُدْعَوْن إلى اتِّباع شرع اللهَ وكتابه، يرفضون ذلكَ، ويصرّون على اتباعِ ما كان عليه آباؤهم من الشرك والكفر!

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا . . ﴾

هؤلاء أُناسٌ ضالّون، فبينما نرى الناسَ الأسوياءَ يعبدونَ اللهَ وحده، لأنه هو وحده ربُّ العالمين، نجد هؤلاء الضالّين الشاذّين يعبدون غيرَ الله، ويبحثون عن ملأ كبراء من سادتهم وزعمائهم، فيجعلونَهم آلهةً مكانَ الله ويعبدونهم بدلَ الله، ويتخذونهم أنداداً مُساوين مُماثِلين مُشابهين لله.

وبئس ما اختاروه واتخذوه، فمهما علا الإنسانُ وارتفعَ وتمكن، فلن يرقى إلى مقامِ الله، بل سيبقى إنساناً مخلوقاً عاجزاً ضعيفاً.

﴿ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ . . ﴾

هؤلاء الناسُ السذجُ المستضْعَفون يخضعونَ لمتبوعيهم من السادةِ والكبراء، الذين جعلوهم أنداداً لله، يذلّون أمامهم،

ويُلْغون وجودَهم عندهم، ويَعبدونهم، ويُحبونهم محبةً بالغة، ويُمضون أوقاتهم في تحقيقِ رغباتِ آلهتهم البشرية، ويكدّون ويَتعبون ويشقون لينالوا رضى أسيادهم الأنداد.

يحبون أَندادهم كحبِّ المؤمنين الصالحين لله، حبُّ الله يستولي على كيانِ المؤمنين، وحبُّ الطواغيتِ الأنداد يستولي على كيانِ الأتْباع!

وبينما يسعدُ المؤمنون في حبهم لله، ويأْنَسون به، ويطمئنّون إليه، فإنّ هؤلاء الأتْباع يَشْقون بحبِّ متبوعيهم الأنداد، ويتمزَّقون ويَخسرون به، لأنَّ المتبوعين الطواغيتَ ليسوا محلاًّ للحب، ولا يصلحون أنْ يكونوا بديلاً عن اللهِ وحبِّه.

لماذا خضعَ الأتباعُ للمتبوعين؟ ولماذا جعلوهم آلهةً أنداداً لله؟

لقد خدعَتْهم قوةُ المتبوعين، فهم أصحابُ الأمر والنهي، ومالكو النفوذِ والسلطان، وبيدهم كلُّ شيء، كما يبدو للناظِر قصيرِ النظر، ولذلك خافوهم، وتوقَّعوا بطشَهم، وفكَّروا في أعمارِهم وأرزاقهم وأعمالهم، وطمعوا في القربِ والحظوةِ عند متبوعيهم، فجعلوهم أنداداً لله، وعبدوهم، وذلّوا وضعفوا أمامَهم.

ولكن هل المتبوعون كذلك؟ وهل يملكون القوةَ التي ظنَّها الأتْباعُ الأذلاء؟

لابدَّ مِن تقديمِ المنظر الحقيقي، الذي يصورُ الحقيقةَ للأَتْباع والمتبوعين.

وهاهي اللقطةُ عن مشاهدِ يوم القيامة: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾.

هاهم المتبوعون واقفون مع الأَتْباع يوم القيامة، ماذا معهم من قوة؟ إنهم مثلُ الأَتْباع تماماً، لا يملكون أيَّ مظهرٍ من مظاهر القوة، لأنَّ القوةَ كلَّها بيد الله وحده، والعذابُ ينتظرُ الأتباع والمتبوعين جميعاً، والفريقان ضعفاءُ أذلاءُ لا يملكون شيئاً.

والحقيقةُ أنَّ القوةَ كلَّها لله وحده، ليس في الآخرة فقط، بل في الدنيا أيضاً: ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾.

إن المؤمنين الصالحين رأوا هذه الحقيقةَ الإيمانيةَ بالمنظارِ الإيماني الصحيح، فجعلوا القوةَ كلَّها في الدنيا بيد الله، فعبدوه وكانوا شديدي الحبِّ له، ولم يجعلوا معه أنداداً من الكبراء.

أما الضعفاءُ من الأَتْباع فقد كان منظارُهم خادِعاً في الدنيا، ولذلك ظنوا القوة للمتبوعين وحدَهم، فاتَّبعوهم، وجعلوهم أنداداً لله!!

وعندما تتضحُ الصورةُ يومَ القيامة للأَتْباع والمتبوعين، وتنكشفُ الأمورُ عن حقائقها، ويقفونَ جميعاً عاجزين أمامَ عذابِ الله، يبدأ التبرؤُ والتلاومُ والندم.

يقوم المتبوعون بالبراءةِ من أَتْباعهم، ويفاصلونَهم، ويَقطعون علاقتَهم بهم: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾.

أهذه هي نهايةُ الصلةِ بين الأَتْباع والمتبوعين؟ كم قدمَ الأَتْباعُ الضعفاءُ لمتبوعيهم في الدنيا! وكم أنفقوا لهم من الأوقاتِ والأعمارِ والطاقات والكرامة! وكم خدموهم وأَعانوهم ودَعَموهم!

والآن، وعند حاجةِ الأَتْباعِ لمتبوعيهم، يسارعُ المتبوعون بالتبرؤ من خدمِهم وأَتْباعهم! الآن يتخلَّونَ عنهم لما رأوا العذابَ قادماً ، يغشى الفريقين!!

هاهي الأسبابُ والروابطُ والصلات، التي جمعتْ بين عنصريْن غيرِ متكافئيْن في الدنيا: الأَتْباع الضعفاء، والمتبوعين المستكبرين، هاهي تتقطَّعُ وتتهاوى وتزول، ويقفُ الأَتْباع وحدهم، يواجهون عذابَ الله القوي، بدون ناصرٍ أو معين.

ويُفاجأُ الأَتْباعُ بتبرؤ متبوعيهم منهم، وتقطُّعِ الأسبابِ والروابطِ معهم، ويَشعرون بالخسارةِ الفادحة، والغُرْم الكبير، فيقولون: ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾.

إنها عبارةٌ صادرةٌ عن قلوبهم، وليست مجردَ كلماتٍ نَطقَتْ بها ألسنتُهم، وإنها تقطر ألماً وحزناً وحسرةً وندماً.

يتمنّى الأَتْباعُ لو أنَّ اللهَ يهيىءُ لهم كرةً أُخرى، ويعيدُهم مع متبوعيهم إلى الدنيا مرةً ثانية، ولو حصلَ هذا فإنهم سيتبرءونَ من هؤلاء المتبوعين، ولن يوثِّقوا صلاتهم بهم، ولنْ يجعلوهم أَنداداً لله، وسيعاملونهم بقوة وعزة. ولكنهم يعلمون أنَّ الكرةَ لن تُرَدّ، ولن يعودوا للدنيا، وأنهم ينتظرهم عذابُ الله.

أَعَرَفْنا الآن حُسْنَ اختيارِ المؤمنين الصالحين، وصوابَ نظرِتهم؟ حيث كانوا موحِّدين لله شديدي الحبِّ له، ولم يتَّبعوا الطواغيتَ والكبراء، ولم يَجعلوهم أنداداً لله!!

إنهم لم يَحزنوا ولم يتألَّموا ولم يَندموا، لأنَّ اللهَ أكرمهم على

براءتِهم من الطواغيت في الدنيا، بإدخالِهم جناتِ النعيم.

أَعمالُ المؤمنين الصالحين رابحة، وقد أثابهم اللهُ عليها حسنَ الثواب، وصاروا يتنعَّمون في الجنة جزاءَ ما أَحسنوا في الدنيا.

أما أعمالُ الأَتْباع والمتبوعين أصحاب الباطل، فهي خسارةٌ وهباء، وضلالٌ وضياع: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

بما أنَّ الأَتْباعَ والمتبوعين لم يروا الحقيقةَ في الدنيا، ولم يروا أنَّ القوةَ كلَّها بيدِ الله وحده، فقد أَراهم اللهُ يومَ القيامة أعمالَهم حسراتٍ عليهم.

كلُّ عملٍ للأَتْباع في الدنيا، رَجوا نفْعَه في النهاية، فُجِعوا فيه، فتحوَّلَ إلى حسرةٍ تأكلُ قلوبهم، ومجموعُ أعمالِهم تحوَّلَ إلى حسرات، تفْتاتُ قلوبهم، وتذهبُ بنفوسهم.

وكلُّ عملٍ للمتبوعين صارَ حسرة، وتحوَّلتْ أعمالُهم إلى حسرات، تذهبُ بنفوسهم وتقضي عليهم.

هذه نهايةُ الأَتْباع والمتبوعين في جهنم، فلتأكُلْهم الحسرات، وليذوبوا هَمّاً وغمّاً، وليتجرَّعوا مرارة الخزيِ والندم، في نار جهنم، خالدين فيها أَبداً!!

● ● ●



(٥)

الأتبـاع والمتبوعون في سورة الأعراف

مع الاتِّبـاع في السورة:

١ ـ قال تعالى: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١ ـ ٣].

تركِّزُ سورةُ الأعرافِ على موضوع الاتِّباع كثيراً، ولذلك جاءَ الحديثُ عن الاتِّباع في مقدمتها.

«ألمص» وأمثالُها من الحروف العربية، هي الحروفُ التي تألفتْ منها كلماتُ هذا القرآن، وهذا القرآن كتابُ الله، أنزلَه إلى رسوله محمد ﷺ، لينذرَ به الكافرين، ويذكِّرَ به المؤمنين، فلا يكنْ في صدره حرجٌ أو ضيق يعيقُه عن الإنذار، ولا يهتم بما سيقولُه عنه الكفار.

وهكذا كلُّ عالمٍ وداعية ومصلح بعد رسول الله عليه الصلاة والسلام، يجبُ أنْ يجهرَ بالإنذار ويصدعَ بالأمر، ويقومَ بالواجب، ولا يكونَ في صدره حرجٌ من ذلك!

ما هي خلاصةُ هذا القرآن، الذي أمر اللهُ بالإنذارِ به؟ وماذا يريدُ القرآن من الناس؟

إنه «الاتِّباع»، ذلك الموضوعُ الذي لابدَّ أن يفهمه كلُّ إنسان، ولابدَّ أن يعرفَ ماذا يتَّبع، وماذا لا يتبع.

القرآنُ يقررُ هذه الحقيقة: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ.. ﴾.

إنها قضيةُ الحياة البشرية: إتَّبعوا، ولا تَتَّبعوا إتَّبعوا الحق الذي شرعه اللهُ لكم، ولا تتبعوا الباطلَ الذي يقرره لكم الشيطانُ وجنودُه.

إنها «الحاكمية» التي يَقْصرها المؤمنُ على الله، فهو الحاكم والمشرع، ولا يجعلُها لأحدٍ من دون الله، ولا يقرُّ حكماً يتعارضُ مع حكم الله، ولا ازدواجيةَ عند المؤمن، وكلُّ مَن اتبعَ الباطل، فهو غيرُ متبعٍ للحق، وإنْ زعمَ غيرَ ذلك.

٢ ـ قال تعالى عن سخريةِ الملأ الكافرين من مدينَ بمن آمنَ واتبعَ شعيباً عليه السلام، وماذا كانت النهاية: ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ۝٩٠ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ۝٩١ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٩٠ ـ ٩٢].

قصةُ شعيبٍ عليه السلام مع مدينَ تطبيقٌ لأولِ آيات السورة: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ ﴾. فقد آمن نفر من قوم مدين بشعيب عليه السلام، واتبعوه.

ولكنَّ الملأَ الكافرين الطواغيتَ من قوم مدين لم يقبلوا هذا، فخاطَبوا المؤمنين قائلين: لئن اتبعتُم شعيباً إنكم لخاسرون. ودَعَوْهم إلى أنْ يتَّبعوهم هم، ليكونوا ناجحين مفلحين! لقد قلَبوا الحقيقة، وعكَسوا الصورة: اتِّباعُ النبيِّ شعيب على الحق خسارة، واتباعُ الملأ الكافرين ربح!

وجاءهم أمْرُ الله، وأنجى اللهُ شعيباً والذين آمنوا به، وكانوا باتِّباعهم له ناجين فائزين، ودمَّرَ اللهُ قوم مدين الكافرين، وأصبحوا في ديارهم هامدين جاثمين، وبذلكَ كانوا هم الخاسرين.

ألم تقرِّرْ مقدمةُ السورة هذه الحقيقة: اتِّباعُ الحق فوز وفلاح، واتِّباعُ الباطل خزيٌ وخسران؟؟

٣ ـ قال تعالى: ﴿ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

[الأعراف: ١٥٦ ـ ١٥٨].

تقدمُ هذه الآياتُ أهمَّ صفات النبيِّ الأمي، خاتمِ الأنبياء والمرسلين، محمدٍ ﷺ، هذه الصفاتُ هي المذكورةُ في التوراة والإنجيل.

وتطالبُ هذه الآياتُ الناسَ جميعاً - ومنهم اليهود والنصارى - الإيمانَ بهذا النبي وتأييدَه ونصرته، وحسنَ اتباعه والسيرَ على طريقه، لينالوا رحمةَ الله الواسعة، التي وسعتْ كلَّ شيء، والتي جعلَها اللهُ للمؤمنينِ المتبعين لمحمدِ النبي الأمي ﷺ، وحرمَ منها الذين كفروا به وكذَّبوه ولم يتبعوه.

وتركزُ الآياتُ على الاتِّباع، ولهذا تحدثتْ عنه في ثلاثِ جُمَل:

الأولى: في بيانِ صفات المرشَّحين لنيلِ رحمة الله الواسعة، حيث حصرتْها بالإيمان بالنبي الأمي ومتابعته: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ..﴾.

الثانية: الإخبار عن وجوب اتِّباعِ شرع هذا النبي الذي أنزله الله إليه، وهو نورٌ من الله ينيرُ حياةَ الناس: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

الثالثة: الرسول الخاتم عليه الصلاة والسلام يقدِّمُ نفسه للناس جميعاً، ويطالبهم بالإيمان به واتباعه: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

ونلاحظُ أن كلَّ مرة من المرات الثلاث التي وردَ فيها اتباعُ

محمد ﷺ، كانت مقرونةً بنتيجةٍ مرغوبة، وهدفٍ سامٍ:

الذين يتبعونَ الرسولَ النبيَّ الأمي، هم المرحومون.

والذين يتبعونَ النورَ الذي أُنزل معه، هم المفلحون.

والذين اتبعوه اتّباعاً حقاً، هم المهتدون.

أي: الذينَ يريدونَ الهدى والفلاحِ والرحمة فعليهم اتّباعُ الرسولِ النبيِ الأمي، لأنه الطريقُ الوحيدُ لتحقيق ما يريدون.

٤ ـ قال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ۝ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٦].

قدمتِ الآياتُ السابقةُ ـ في الأمثلة السابقة ـ نماذجَ إيجابيةً للاتّباع الصحيح، حيث بينت النتائجَ الإيجابيةَ لاتِّباع شرع الله. فالذين اتَّبعوا شعيباً عليه السلام، كانوا ناجين فائزين، والذين اتبعوا محمداً ﷺ، كانا مرحومين مفلحين مهتدين.

أما هذه الآيات، فإنها تقدمُ نموذجاً ومثالاً للاتباعِ السيء المذموم، اتباعِ الهوى والشيطان، الذي يقودُ إلى الضياعِ والغواية والخسران.

إنه شخصٌ ـ مبهم ـ آتاه اللهُ آياتِه، وعلَّمه العلم، وأَمره باتباعِ

الحق، ونَهاه عن اتباع الباطل، وجعل هذا وحده طريقَ الرفعة والعزة.

ولكنَّ هذا البائسَ الخاسر رفضَ التكريم من الله، وردَّ منهج الله، ولم يتبع هدى الله واختارَ البديلَ السيء.

لقد انسلخَ من آيات الله، وتخلّى عن العلم، وترك الهدى.

لقد أَخلدَ إلى الأرض، واتَّبع الهوى، وأَتْبعه الشيطان، وصار من الغاوين.

وقفَ هذا الغاوي البائسُ في منتصف الطريق، ووقفَ أمامه هواه: ﴿ وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾، وأَغراه هواه وأغواه، ودعاه إلى اتباعِه ومتابعتِه، واللهاثِ خلفه.

ووقفَ خلفه الشيطان، يتابعُه وينهرُه، ويدفعُه ويلكزُه، ويأمُره أن يتبع هواه، وأنْ يسرعَ خُطاه.. واتبع هذا البائسُ هواه، وجرى خلْفَه، وكلما كان يريدُ أن يتوقفَ ليفكر أو يستريح، أو يلتقطَ أنفاسه، كان «الشيطان» خلفه، يتبعُه ويلحقُه، وينخزُه ويدفعُه، ويعلوه بسياطه وصياحِه، ويدعوه للمسارعةِ في اتباع هواه، فينفِّذُ المسكينُ البائس أوامر شيطانه الذي يلاحقه ويتبعه، ويَجري وراءَ هواه ويجري، ويلهث ويلهث: ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث.. ﴾.

هذا هو مثالُ الاتِّباع المذموم: ﴿ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾، ﴿ فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾، ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ

ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾، ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾.

فمنْ يَرضى أن يكون هكذا؟ ومَنْ يرفضُ بعد هذا اتباعَ منهجِ الله؟

مع الأتبـاع والمتبوعين في السورة: اتهام وتلاوم وتلاعن:

قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٣٧ـ٤١].

هذا مشهدٌ شاخص مصوَّر، وحيٌّ متحرك، من مشاهدِ الأتْباع والمتبوعين، تقدمُه آياتُ سورة الأعراف.

يركزُ هذا المشهدُ على اجتماع الأتْباع والمتبوعين في النار، ويصورُ ما يجري بينهم من اتهامٍ وتلاومٍ وتلاعُن.

تبدأ الآياتُ بتقرير حقيقةٍ قرآنية: لا أحدَ أظلمُ من شخصيْن: مَنْ كَذَبَ على الله، ومَنْ كَذَّبَ بآيات الله.

وسيموتُ الكاذبون على الله، والمكذِّبون بآيات الله، وستتوفاهم رسلُ الله من الملائكة، وتقبضُ أرواحَهم، ولن تنفعهم الآلهةُ التي عبدوها من دون الله.

ويوم القيامة، سيبعثُ الله الأمواتَ جميعاً، ويَخرجون من قبورهم أحياءً للحساب، وسيلتقي الأتْباعُ والمتبوعون هناك، وسيذهبون بهم إلى النار، وهناك سيقعُ بينهم تشاتُمٌ وتلاعُن، وسيتَّهمُ الأتْباعُ المتبوعين بالإضلال، وسيطالبون بمضاعفةِ العذاب لهم، وسيتبرأ المتبوعون من أتباعهم.

وتختم الآياتُ بتقرير حقيقةٍ قرآنية قاطعة: إنَّ الأممَ الضالة المتلاحقة من الأتْباع والمتبوعين مخلَّدون في النار، ولن يدخلوا الجنةَ حتى يدخلَ الحبلُ الغليظ ثقبَ الإبرة الصغيرة! وهذا مستحيلٌ وذاك مستحيل. فلْيبقَ المجرمون الظالمون من الأتْباع والمتبوعين في جهنم، يتقلَّبون في نارها وعذابها، لهم من نارها فرشٌ يفترشونها، ولهم من نارها أغطيةٌ يتغطون بها، وغواشٍ تغشاهم من فوقهم. وتصوَّرْ معي الفرشَ والأغطيةَ المصنوعة من النار الحارقة! وتصوَّرْ معي منظرَ هؤلاء مقيدين بين الفُرُش والأغطية النارية!!

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ﴾: الظلمُ درجاتٌ متفاوتةٌ في القبح والسوء، وأقبحُها وأرذلُها ظلم

الكاذبين على الله، والمكذِّبين بآياته.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ﴾: هؤلاء الكاذبون والمكذِّبون غيرُ مخلَّدين على وجه الأرض، وإنما سيعيشون أعمارهم التي قدَّرها الله لهم، ويأخذون أرزاقَهم التي كتبها الله لهم، وينالون نصيبهم من الكتاب. ثم يموتون بعد ذلك!

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾.

الكافرون من الكاذبين والمكذِّبين قد اتبعوا الطواغيتَ والكبراء، ورفضوا اتباعَ الصالحين.

لكن هل ينصرُهم الطواغيت؟ وهل يَدْفعون عنهم قدَرَ الله وأمرَه؟ كلا إنهم لن يقدروا على ذلك، لأنهم ضعفاءُ مثلُهم، وإنْ أظهروا لأتْباعهم أنهم أقوياء!

يواجه الأتْباعُ مصيرهم بأنفسهم، فعندما يأمر اللهُ رسلَه من الملائكة بقبضِ أرواحِ هؤلاء، ينفذُ الملائكةُ أمرَ الله، ويتوفون هؤلاء، وقبلَ أنْ يقبضوا أرواحَهم يسألونهم سؤالَ تهكُّمٍ وسخرية: ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ؟﴾.

أين أسيادُكم ومتبوعوكم، الذين جعلْتُموهم أَنداداً لله، ودعوتموهم من دون الله؟ لماذا لم ينصروكم ولم يُدافعوا عنكم الآن؟

عند ذلك يجيبُ الأتْباع الضعفاء بندمٍ وخزيٍ ومرارة: ﴿ضَلُّواْ

عَنَّا﴾. لقد تخلّوا عَنّا، وتركونا وحدنا، وبحثْنا عنهم فلم نجِدْهم، ضلّوا وابتعدوا عنا!!!

المتبوعون تخلَّوا عن أَتْباعهم، وضلّوا عنهم، عندما كان الواحدُ من الأَتْباع يحتضر، وعلى وشكِ الموت.

والمتبوعون يتخلَّونَ عن أَتْباعهم في موطن آخر، يكونون بأمسِّ الحاجة إليهم، إنه عند البعثِ والموقف والحساب.

يوم يحاسبُ اللهُ الجميعَ يوم القيامة، يأمر بإدخالِ طوائفِ الكفار وأصنافهم وأممهم في النار، وهناك يلتقي الأَتْباعُ مع متبوعيهم في النار، فيقومون بشتْمهم وسبِّهم ولعنهم، ويردُّ عليهم متبوعوهم بالشتم واللعن، ويحمِّلُ كلٌّ فريق منهم الآخرَ مسؤولية ما حدث، ويطلب من الله مضاعفةَ العذاب له، ويشتركُ الجميع في العذاب.

﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ﴾

يُدخِلُ اللهُ الكفارَ من الأتباعِ والمتبوعين في النار، سواء كانوا من الجنِّ أو من الإنس، ويُلحقُهم فيها بإخوانِهم الكفار، من الأمم الذين كانوا قبلهم.

وتلتقي أَجيالُ الكفار وأممُهم في النار، وتجتمعُ أصنافُهم من الأَتْباع والمتبوعين فيها.

﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَاۖ . .﴾

تَدخلُ الأمةُ الكافرةُ في النار، فتجدُ أُخْتَها الأمةَ الكافرةَ الأخرى قد سبقَتْها إلى النار، فتواجهُها باللعنة والشتم، تقول

لها: لعنةُ الله عليك! وتَردُّ الأمةُ السابقةُ اللعنةَ بمثلها، وتلعنُ الأمةَ القادمة.

ولا يهمُّنا تحديدُ الأمةِ السابقة أو اللاحقة، أنَها من الأتْباع أو المتبوعين، فقد تكونُ إحداهما من الأتْباع، والأخرى من المتبوعين.

المهمُّ أن الصلةَ والعلاقة بينهما تقومُ على التشاتمِ والتلاعُن. وتخيَّلْ معنا أفواجَ الكفار المتتابعة، تدخلُ جهنم متلاحقة. وانظرْ بماذا يحيّي بعضُهم بعضاً، واسمعْ بخيالك اللعنات والشتائم التي يوجِّهها كلٌّ منهم للآخر!!

وبعد ما يتمُّ تتابعُ الأفواجِ الكافرة من الأتْباع والمتبوعين، وبعدما تتوقفُ اللعنات يأتي مشهدُ اجتماعِهم جميعاً وسط الجحيم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا﴾ معنى «ادّاركوا»: تَداركوا فيها. أي: أدركَ بعضُهم بعضاً، ولحقَ به، وتبعه، وصار معه في جهنم.

﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾.

هذا مشهدُ التلاوم، بعد مشهدِ التلاعُن السابق. فالأمةُ المتأخرةُ في الالتحاق تُحمِّلُ مسؤوليةَ الإضلال، للأمةِ الأولى، السابقةِ في الوصول، ولعلَّ «أخراهم» هي أمةُ الأتْباع، التي

كانت في الدنيا «أخرى»، متأخرةً في المنزلة والكرامة، لأنها تابعةٌ لأسيادِها وكبرائها.

ولعل «أولاهم» هي أمةُ المتبوعين، التي كانت في الدنيا «أولى» سابقةً متقدمةً في المنزلة والكرامة، لأنها بيدها القيادةُ والقرارُ والتوجيه.

ولعلَّ «المتبوعين» يدخلون جهنم أَوَّلاً، ثم يدخلُ بعدهم «الأتْباع».

فعندما يلتقي الأتْباع مع المتبوعين، يُحمِّلونهم مسؤولية الإضلال والكفر، ويقولون لربهم: ﴿هَٰؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾!!

هؤلاء المتبوعونَ هم الذين أَضلّونا في الدنيا، وجعلونا كافرين، ولولاهم لكنّا مؤمنين ـ كما وردَ هذا في آياتِ أخرى صريحة، سنعرضُ لها فيما بعد، إن شاء الله ـ.

وبعدَ أنْ يحمِّلَ الأتباعُ مسؤوليّةَ إِضلالهم لمتبوعيهم، يطلبون من الله أنْ يضاعفَ لهم العذاب: ﴿فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾.

آتهم عذاباً ضعفاً من النار، لأنهم ضلّوا، ثم أَضلّونا معهم، فضاعِفْ لهم العذابَ ضعفين.

ولكنَّ الأتْباع يتحمَّلون مسؤولية ضلالِهم، فلماذا تابَعوا أسيادَهم وكبراءهم في الضلال؟ ولهذا يقولُ الله لهم: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾.

المتبوعون سيضاعَفُ لهم العذاب، وأنتم الأتباعُ سيضاعَفُ

لكم العذابُ أيضاً، لأنكم أَلغيتم وجودَكم، وقضيتُم على شخصياتكم!

هل يتقبلُ المتبوعون كلامَ الأَتْباع؟ وهل يسكتون على اتِّهامهم؟ وهل يتحمَّلونَ المسؤولية؟ كلا.

﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

أيها الأَتْباع: لا تظنّوا أنكم ناجون هنا، عندما تحمَّلونا مسؤوليةَ إضلالكم، ليس لكم علينا فضلٌ ولا منزلةٌ هنا في الآخرة، وعندما تتهرَّبون من المسؤولية، وتُلقونَها على غيركم، فلا يُقرِّبكم هذا عند الله، ولا يجعلُكم أفضلَ منّا عنده.

إننا نشتركُ معكم في العذاب، ولكلٍّ منا ضعْفٌ من العذاب، وسيعذِّبكم اللهُ معنا، لأنكم كسبتم الكفرَ والمعصية، فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون.

هذا هو مشهدُ التلاعنِ ثم التلاوم، بينِ الأَتْباع والمتبوعين كما تعرضُه هذه الآيات، وهذه هي نهايةُ الاتِّباع الذليلِ المذموم، وهذه هي عاقبةُ الذين يذلّون أنفسهم أمامَ كبرائهم، ويستجيبون لدعوتهم لهم، فيكفرون ويضلون.

كلٌّ من الفريقيْن معذَّب، ولكلٍّ من الفريقيْن ضِعفٌ من العذاب، وكلٌّ من الفريقيْن مخلَّدٌ في جهنم، وكلٌّ من الفريقيْن مجرم، وكلٌّ من الفريقين ظالم، وهذا جزاءُ المجرمين والظالمين عند الله.

إنهم يتقلَّبون جميعاً وسط العذاب. فلَهم من جهنم ونارِها مِهاد، يمتهدونَه ويفترشونه، ولهم من جهنم ونارِها غَواشٍ تغشاهم، وأغطيةٌ تغطيهم: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ﴾.

وكما قالِ الله عنهم في آية أخرى: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ﴾ [الزمر: ١٦].

وكلٌّ من الفريقيْن: الأتباعِ والمتبوعين لا يَدخلون الجنة: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾.

والجَمَل: هو الحبلُ الغليظ، الذي يُشَدُّ به الحملُ والمتاعُ على الجَمَل، وليس هو الجملَ الحيوان المعروف ـ على الراجح ـ والتقدير: حتى يلجَ حبلُ الجَمَل.

وسمُّ الخياط ثقبُ الإبرةِ الضيق.

وإذا أمكنَ إدخالُ الحبل الغليظ ثقبَ الإبرة الصغيرة، دخلَ الكفارُ الجنة!!!

• • •

(٦)

الأتباع والمتبوعون في سورة إبراهيم

مع الاتِّبـاع في السورة:

ذكرَ اللهُ «الاتِّباع» في سورة إبراهيم ثلاثَ مرات.

المرةُ الأولى: مشهدُ تخاصُمِ الأَتْباعِ للمتبوعين في نار جهنم، عندما قالوا لهم: ﴿**إنا كنا لكم تبعاً، فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء؟**﴾.

وسنقفُ مع آياتِ هذا المشهد بعد قليل إن شاء الله.

المرةُ الثانية: الاتِّباعُ الإيجابي المحمود الذي يوصِلُ إلى الجنة، ذلك الاتِّباعُ المتمثلُ في متابعة المؤمنين لنبي الله إبراهيم عليه السلام، ودفاعِه هو عنهم، وشفاعته لهم.

وردَ هذا الاتباعُ المحمودُ في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٥ ـ ٣٦].

لما وضعَ إبراهيمُ عليه السلام ابنَه إسماعيل وزوجَه هاجر في

الوادي غيرِ ذي الزرع، مكان البيت الحرام، في أرضِ الحجاز، توجَّه إلى الله بالدعاء، فطلبَ من الله أنْ ينشأَ في هذه البقعة بلدٌ معمور، وأنْ يسكنَه أُناس مؤمنون، وأن يكون هذا البلد آمناً مطمئناً.

واستجابَ اللهُ دعاءَه، فأمره الله ببناءِ الكعبة، ثم أنزل الله الناسَ حول الكعبة، فأنشأوا مكة، بلدَ الله الحرام، وتحوَّل ذلك الوادي، من وادٍ غير ذي زرع، إلى بلدٍ آمنٍ مطمئن، يأتيه رزقُه رغداً من كل مكان، أهلُه آمنون مطمئنون، ويُتَخَطَّفُ الناسُ من حولهم!

وطلبَ إبراهيمُ عليه السلام من ربه أنْ يعصمَه من عبادة الأصنام، هو وبنيه، لأنَّ الأصنام أَضْللنَ كثيراً من الناس.

وعبادةُ الأصنام شركٌ بالله، وهذا يتناقضُ مع «أَمْن البلد»، فبما أنه يريدُ أنْ يكونَ هذا البلدُ آمناً، فقد نصَّ على الوقاية من نقيضه! إنَّ عبادةَ الأصنام، والكفرَ بالله، يقود إلى «تخريب» البلد، وزوالِ أَمْنه، والذهابِ بخيره واطمئنانه!

ولا يتحققُ الأمنُ والاطمئنانُ للبلد - أي بلد - إلا بعبادةِ اللهِ وحده، وتعبيدِ الناس وإخضاعِهم له وحده، واتِّباعِهم لشرعه وحده.

وعلى الحريصين على أمنِ وسلامةِ أيّ بلد، الحَذِرين من تخريبه واضطرابِ أمنه،، أنْ يفهموا هذه الإشارةَ الذكيةَ من إبراهيم عليه السلام، عندما وضعَ عبادة الأصنام مقابِلةً لأمن

البلد، ومناقضةً له: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾.

وبما أنَّ إبراهيمَ عليه السلام نبيٌّ كريم، فإنه يدعو الناسَ إلى الإيمان به وتصديقه، وإلى حسْنِ اتباعه على طاعةِ الله وعبادته.

وسينقسمُ الناسُ أمامَ دعوته إلى قسمين:

منهم مؤمنون صالحون أَخيار، يلبّون دعوتَه، ويتبعونه، ويجعلونه قائدَهم وقدوتَهم، هؤلاء هم أهلُه وجنودُه وأحبابُه، هم منه، وهو منهم. ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾.

ومنهم كافرون ظالمون، يرفضون دعوتَه، ويكذّبونه، ولا يتبعونَه، وإنما يعصونه ويخالفونَه، هؤلاء بعيدون عنه، هو بريءٌ منهم، وهم بريئون منه، يتركُ أَمرهم إلى الله: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أَتْباعُ إبراهيم عليه السلام فائزون ناجحون مفلحون، سعداءُ في الدنيا والآخرة، واتِّباعُهم له اتِّباعٌ إيجابيٌّ محمود مطلوب.

المرة الثالثة: اتِّباعٌ سلبيّ باطل مذموم، يوصِلُ صاحبه إلى نار جهنم، وهو المتمثلُ في اتِّباع الظالمين المستكبرين، وعدم اتِّباعِ الرسل الكرام.

فقد عرضتْ آياتُ سورة إبراهيم لقطةً عن أصحاب هذا الاتِّباع الباطل يوم القيامة. وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ

﴿وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾

[إبراهيم: ٤٤ ـ ٤٧].

الظالمونَ المستكبرون الذين يقفون هذا الموقفَ الذليلَ يوم القيامة، ماذا كانوا في الدنيا؟

لقد بعثَ الله لهم رسُلاً، دَعْوهم إلى الإيمان بالله وحسن عبادته، وإلى اتِّباعهم ومتابعتهم على الحق.

ولكنَّ الظالمين رفضوا هذه الدعوةَ الكريمة من الرسل، ولم يتَّبعوهم، وجعلوا أنفسهم آلهة، ودعوا الناسَ إلى اتِّباعهم هم وصاروا سادةً كبراءَ متبوعين لأقوامهم، وتآمروا على رسلِ الله، ومكروا بهم، وإنَّ مكرَهم بهم ليزيلَ الجبال.

ولكنَّ اللهَ مع رسله، لم يخلفْهم وعدَه، ولذلك نصرهم على أعدائهم الظالمين المستكبرين، وأوقعَ بهؤلاء الظالمين انتقامه، لأنه عزيز ذو انتقام.

والآن بعثَ اللهُ الجميع وأوقفهم للحسابِ بين يديه وفازَ الصالحون أَتْباعُ الرسل، وأَدخلهم اللهُ الجنةَ برحمته.

ورأى الظالمون المستكبرون هذا، وسيطرَ عليهم الحزنُ

والأسى، فهؤلاء الرسلُ الذين عادوهم، وهؤلاء المؤمنون أَتْباعُ الرسل الذين سخروا منهم في الدنيا، ذاهبون إلى الجنة ونعيمها.

أما الظالمون المتبوعون، فإنهم ذاهبون إلى النار وعذابها.

فلْيطلُبوا من الله طلَباً، كلُّه خزيٌ وندامة، وحسرةٌ وألم، وذلةٌ وهوان: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ﴾.

إنهم يريدونَ من الله أن يُعطيهم فرصةً أُخرى! أنْ يعيدَهم إلى الدنيا، وأنْ يمتحنَهم بالابتلاءِ والتكليفِ مرةً ثانية، وسينجحون في هذه المرة، سيلبّون الدعوةَ إلى الإيمان به، وسيعبدونَه، وسيتَّبعون رسله، وسيكونون معهم جنوداً ، أتْباعاً!!!

لكنَّ الفرصةَ فاتتْهم، ولن يعيدَهم للدنيا من جديد، لقد كانوا في الدنيا والمجالُ أمامَهم مفتوح، والاستجابةُ ممكنة، والآياتُ شاهدة، فلماذا لم يستفيدوا منها: ﴿وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾!!

أين هذا الاتّباعُ السلبيّ للظالمين، من ذلك الاتّباعِ الإيجابيِّ للمرسلين؟؟

مع الأتباع والمتبوعين في السورة: استضعاف وتحسر وبراءة:

قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ

عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾

[إبراهيم: ١٩ ـ ٢٣].

هذا مشهدٌ مصوَّر مؤثِّر، وحيٌّ متحرك، يصوِّرُ لنا الأتْباعَ والمتبوعين يوم القيامة، ويلتقط صوراً لهم وهم معذَّبون، ويُرينا الأتباعَ الضعفاء، وهم يذوبون حسرةً وندماً، ويُرينا المتبوعين المستكبرين وهم يتبرؤون من أتباعهم.

ويسجِّلُ لنا هذا المشهدُ المصوِّرُ خطبةً عصماء، أَلقاها الشيطانُ في أَتْباعه وسطَ جهنم، يمكنُ أنْ نسميَها «الخطبةَ الإبليسية»، يتبرأُ فيها إبليس من أَتْباعه، ويقرِّعُهم ويلومهم ويوبِّخُهم، ويحَمِّلُهم مسؤوليةَ ما جرى لهم، ويتنصَّلُ هو من ذلك.

ولا تنسى آياتُ هذا المشهد أن تقدِّمَ لنا لقطةً منيرةً مشرقة، شاهدْنا فيها المؤمنين السعداء، منعَّمين مرفَّهين، في جناتٍ تجري من تحتها الأنهار، والمحبَةُ والمودَةُ والأخوةُ تظلِّلُ حياتَهم، والسلامُ تحيةٌ منتشرةٌ بينهم!

بدأتْ آياتُ المشهد بالتذكيرِ بخلْقِ الله للسموات والأرض بالحق، والإشارةِ إلى قوةِ الله وقدرتِه، وفعْلِه ما يشاء في خلقه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾.

خلقَ الله السموات والأرض، وأخضعَها لأمره ومشيئته، وخلقَ الله الناس، وأجرى عليهم إرادتَه، وأخضعهم لأمره، وفعلَ بهم ما يشاء، فهو الذي أوجدهم ورزقَهم، وهو الذي يتوفّاهم ويَذهبُ بهم، وهو الذي يأتي بخلقٍ آخر مكانهم، يفعلُ بهم ما يشاء، إيجاداً وإعداماً، وإماتةً وإحياءً.

﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ ليس هذا الفعلُ صعباً ولا شاقاً على الله سبحانه، فالله لا يصعُب عليه أيُّ فعْل، ولا يشقُّ عليه أيُّ أمر، ولا يُعجزه أيُّ تصرف.

وهذا التذكيرُ بهذه الحقائقِ الإيمانية عن قدرة الله وقوته، تمهيدٌ وتوطئةٌ لمشهدِ الأتْباع والمتبوعين، ومنظرِ الضعفاء والمستكبرين. وذلك ليؤكِّدَ لنا ضعفَ الفريقين وعجزهم وفقرهم في الدنيا: الضعفاء والمستكبرين، وليُجردَ المستكبرين المتبوعين من كلِّ ما ادعوه وزعموه من مظاهرِ القوة والقدرةِ والتصرف، التي خدعوا بها أَتْباعهم، واستضعفوهم.

كانوا في الدنيا فريقين:

فريقِ المتبوعين المستكبرين، الذين اغترّوا بقوتهم وسلطانهم، واغترّوا بمنزلتِهم وجاهِهم، وانتفشتْ نفوسُهم،

فجعلوا أنفسَهم آلهةً وأنداداً لله، وأخضعوا الآخرين لهم.

وفريقِ الأَتْباع الضعفاء، الذين استُضْعفوا، وهانَتْ عليهم أنفسُهم، ورأوا أنهم أذلاّءُ مهانون، فضعُفوا أمامَ سادتهم، واستُضْعِفوا لهم، واتَّبعوهم على الباطل، وعبدوهم مكانَ الله.

هذا في الدنيا، أما الآن في الآخرة، فإن الصورةَ لم تبقَ على ما هي عليه، فلا مجالَ الآن للخداع والتزييف، ولابدَّ أنْ يروا الأشياءَ على حقيقتها، والأشخاصَ على حجمهم الطبيعي!

الآن في الآخرة كلُّهم على مستوى واحد، سواء كانوا في الدنيا أَتْباعاً أو متبوعين، ضعفاءَ أو مستكبرين. الآن كلُّهم ضعفاءُ فقراءُ أذلاء، واقفون بين يدي اللهِ القوي، صاحبِ الأمر كله: «وبرزوا الله جميعاً».

بَرزوا جميعاً، أَتْباعاً ومتبوعين، ووقفوا أمامَ الله وقفةَ خزي وذلّ وهوان، بضعفٍ وفقرٍ ومسكنة!

وتلفَّتَ الأَتْباعُ الضعفاءُ حولَهم، وهم يعيشون الأهوالَ والحسرات، ويشاهدون عذابَ الله القادمَ إليهم، فرأوا أسيادَهم ومتبوعيهم، فهرعوا إليهم بذُلّ، واستنجدوا واستنصروا بهم، وطلبوا منهم أنْ يَدفعوا عنهم عذابَ الله، فطالما نَصروهم ودَفعوا عنهم في الدنيا، والآن جاء دورُ الأسيادِ ليدفعوا عنهم!

﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعًا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۚ ﴾.

إنَّ الضعيفَ دائماً ضعيف، وإن الذليلَ دائماً ذليل، لا يفارقُ

ضعْفَه ولا ذلَّه ولا هوانَه، يَجري هذا مع دمه، ويترددُ مع أنفاسه، ويظهرُ على كلماته.

خاطبَ الضعفاءُ الأَتْباعُ متبوعيهم المتكبرين بذلٍّ وضعف وهوان: إنّا كنّا تابعين لكم في الدنيا.

و«تَبَعاً» في قوله «إنا كنا لكم تبعاً». جمْعُ تابِع. تقول: تابع وتَبَع، كما تقول: خادِم وخَدَم.

ويمكنُ أنْ يكونَ مصدراً من الفعل الثلاثي «تَبِع» تقول: تَبِعَ تَبَعاً.

ولا مانعَ أنْ يُرادَ الأمْران: المصدرُ والجمع، فهؤلاء الضعفاءُ أَتْباعٌ وتَبَعٌ لأسيادهم، وهذا معنى الجمع. كما أنهم خالِصوا التبعيةِ والمتابعةِ والاستسلام لهم. وهذا معنى المصدر.

إنهم تَبَعٌ لأسيادهم، لا رأيَ لهم ولا إرادةَ ولااختيار، لقد جعلوا كل هذا لمتبوعيهم، أما هم فقد رَضوا لأنفسهم أنْ يكونوا أَصْفاراً نَكِراتٍ أَمامَ أسيادهم، وأنْ يذوبوا أمامهم، وأنْ يُلغوا عقولَهم وشخصياتِهم ووجودَهم وأنْ لا تبرزَ إلاّ شخصياتُ أسيادِهمُ مكبَّرة: «إنا كنا لكم تَبَعاً».

والآن نحنُ وأنتم أمام عذابِ الله، وهو قادمٌ إلينا: «فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء؟».

هل تدفعونَ عنا عذابَ الله؟ وهل تساعدوننا وتُغْنون وتَسُدّون عنا؟

وهناك فرقٌ بين الجمعَيْن المذكورَيْن في الآية: «تَبَعاً» و«مُغْنون». وهذا الاختلافُ في صيغتي الجمع في تصريحِ الضعفاءِ الأَتْباع، يشيرُ إلى حالةِ الذل والهوان والتبعيةِ التي لا تفارقُهم!

قالوا عن أنفسِهم «إنا كنا لكم تَبَعاً». واختاروا صيغةَ جمعِ التكسير، مثل: خادِم وخَدَم. ولم يختاروا صيغةَ جمع المذكّر السالم، فلم يقولوا؛ إنا كنا لكم تابعين.

وهذا الجمع «تَبَعاً» يُشيرُ إلى ذلِّهم وتبعيتِهم وضياعِهم.

أما متبوعوهم وأسيادُهم فقد خاطبوهم بجمع المذكر السالم: «هل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء؟» وذلكَ لأنهم يجعلون الغَناءَ والدفعَ والقوةَ لهم، فطالما جعلوا لهم القدرة على هذه الأمور في الدنيا.

هكذا يرون أَسيادهم: رِجالاً مُغْنين. وهكذا يرون أنفسَهم: تَبَعاً أَذلّاء!!!.

ماذا قال المتبوعون المتكبرون لأتباعِهم الضعفاء؟

﴿قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ ليس لدفْعِ عذاب الله إلا طريقٌ واحد، وهو الإيمانُ بالله، واتِّباعُ هداه، وتصديقُ رسله، والالتزامُ بشرعه. وهذا كان في الدنيا. وقد فاتَتْنا هذه الفرصة، ولا مجالَ لها الآن.

فلو اهتَدْينا في الدنيا لهديناكم معنا، ولكننا ضلَلْنا فأضلَلْناكم معنا!

ويدعو المتبوعون أَتْباعهم إلى تحمُّلِ مسؤولية ما حدثَ لهم، واستقبالِ عذاب الله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾.

يقولون لهم: نحن وأنتم الآن مشتركون في المصير، مشتركون في العذاب، ولا بدَّ أنْ نهيِءَ أنفسَنا له، وهو عذابٌ أبديٌّ دائم، ولا مهربَ ولا نجاةَ ولا خلاص لنا منه، سواءٌ أجزعْنا ويئسْنا أم صبرْنا وتحمَّلْنا!!

يالَه من اعترافٍ من الأسيادِ المتبوعين، وياله من لومٍ وتقريع لأَتْباعهم، ويالَه من اشتراكٍ بين الفريقَيْن في المصيرِ البائس!!

ويسكتُ الفريقان، ويُصبُّ عليهم عذابُ الله صَباً وسط جهنم.

هل انتهى الأمر؟ لا. فاللومُ والتقريعُ مستمر. لِيستمعِ الفريقان إلى بيانٍ هام، يلقيه عليهم إبليس، إمامُهم وقائدُهم:

﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾: خطبَ إبليس ـ الشيطانُ الرجيم ـ في جنوده الكافرين، من الأَتْباع والمتبوعين، وذلك بعدما قُضيَ الأمر، وانتهى الحساب، وأُدخلَ أهلُ الجنة الجنة، وأهلُ النار النار:

قال الشيطانُ لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ

﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ وهذا اعترافٌ منه بإخلافِه الوعد، حيث وعدَ حزبَه السعادةَ والخير، وها هو يوصِلُهم إلى جهنم، بينما صدقَ اللهُ وعدَه للمؤمنين فأدخلَهم الجنة.

وقال الشيطانُ لهم: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ إنَّ إبليسَ يتنصلُ ويتبرأُ منهم، إنه لم يجبْرهم على الكفر والعصيان، ولم يكن له سلطانٌ عليهم، وما كان منه إلاَ أنْ دعاهم للكفر، مجردَ دعوة، فلماذا لبّوا دعوته واستجابوا له؟ لقد كان بإمكانِهم رفْضُ دعوته كما فعلَ المؤمنون، وأنْ يستجيبوا لدعوةِ الرسل كما استجابَ المؤمنون، ولو فعلوا ذلك لنجَوْا كما نجا المؤمنون، ولمّا قدرَ هو على إجبارِهم على الكفر!

وقالَ الشيطانُ لهم: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا أَنفُسَكُم﴾ إنه يدعوهم إلى تحمُّل مسؤوليةِ ما جرى لهم ونتيجته، وأن لا يُلقوا المسؤولية عليه هو، عليهم أَنْ يلوموا أنفسهم ويُقرّعوها، لأنهم هم الذين استجابوا له، عليهم أنْ يكفّوا عن لومه وتقريعه هو، فليس الذنبُ ذنبَهُ، بل ذنبَهم هم!

وقال لهم الشيطان: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ أي: لا أنا أَقدُر على إنقاذِكم من النار، ورفْع العذاب عنكم، ولا أنتم تقدرون على إنقاذي من النار، ورفْع العذاب عني. وكلُّنا مشتركون في الخلود في جهنم، معذَّبين فيهَا!.

ويختمُ إبليسُ بيانَه الإبليسيّ وخطبتَه الشيطانية، بإعلانِ براءتِه

منهم، وتكذيبه لهم لمّا أَلّهوه في الدنيا، وجعلوه ندّاً لله، فيقول لهم: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾!!.

حقاً إنَّ الشيطانَ شيطان، وإنّ إبليسَ إبليس، هاهو يتبرأُ من أَتبْاعه ويكفرُ بهم، ويتركُهم لمصيرهم البائس!!

وهذه هي النهايةُ المحتومةُ لكل من اتَّبعَ الشيطان!!

• • •



(٧)

الأتباع والمتبوعون في سورة النحل

قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٤ ـ ٨٨].

تعرضُ هذه الآياتُ مشهداً من مشاهدِ يومِ القيامة، وتُصوِّرُ فيه بعضَ ما يكونُ بين الأَتْباع والمتبوعين من تبادلِ الاتهامات، وتكذيبِ بعضهم لبعض.

تبدأ الآياتُ بالإشارة إلى جمعِ الناسِ كلِّهم للحساب، وتوقيفِهم بين يدي الله، وبعد ذلك يبعثُ اللهُ من كلِّ أُمةٍ من الأُمم، وقوم من الأقوام، شهيداً عليهم من أَنفسهم، يشهدُ على أعمالهم وعلى موقفِهم من الحقِّ والإيمان.

هذا الشهيدُ على كلِّ أمَةٍ هو النبي الذي أَرسلَه اللهُ إليها، وقد

أَخبرَنا اللهُ أَنه بعثَ نبياً نذيراً لكلِّ أمة، ليدْعوَهم إلى الله، ويقيمَ عليهم الحجة، ولم يُخبرْنا الله في القرآن إلاّ بأسماءِ عددٍ قليل من هؤلاء الأنبياء.

يبعثُ الله كلَّ نبي شاهداً على قومه يومَ القيامة، فيشهدُ عليهم أنه بلَّغَهم الرسالة، وأنَّ معظمَهم رفضوها، وأَصرّوا على كفرهم، وتكون هذه الشهادةُ إدانةً لهم: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ..﴾ [النحل: ٨٩].

وبعدما يُقدِّمُ كلُّ نبي شهادتَه على الكافرين من قومه، يحاولُ الكافرون الاعتذارَ فلا يُقبَلُ منهم، ويستأذنون في الكلام أو الدفاعِ أو تبريرِ موقفهم فلا يُؤذَنُ لهم، ويُقدمون العُتبى فلا تُقبَلُ العتبى منهم ولا يُسْتعتبون، وبهذا يعلمُ الكافرون أنهم هالكون خاسرون معذَّبون: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

وفي أجواءِ الخزيِ والحسرة والندامة تحدثُ هذه المفارقاتُ بين الأَتْباع والمتبوعين.

تَبدأُ هذه المفارقاتُ والمفاجآتُ برؤيةِ الفريقيْن العذابَ أَمامهم: ﴿وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

والذين ظلموا هم الفريقان: الأتْباع والمتبوعون.

المتبوعون من السادةِ والكبراءِ ظالمون، وهذا أَمْرٌ معروف،

لأنهم أَصحابُ القرار، فظلموا أنفسهم بكفرِهم، وظلموا غيرَهم من الأَتْباع عندما أَمروهم الكفر.

أَما الأَتْباعُ فهم ظالمون، لأنهم تنازلوا عن شخصياتِهم وحرياتِهم واستقلالهم، وتابَعوا سادتَهم بذلَّةٍ وهوان، وهذا ظلمٌ منهم لأنفسهم.

يرى الظالمون من الأتباعِ والمتبوعين العذاب، وهم صائِرون ومُنتهون إليه، وسوفَ يصْلَوْنه، وهذا مبالغةٌ في سيطرة الخوف والهلع والرعب عليهم.

ويُعذَّبُ الظالمون من الأَتْباع والمتبوعين بالعذاب، بدونِ إِنْظار أو إمهالٍ أو تأخير، وعندما يُصَبُّ عليهم العذابُ الرهيب صبّاً في جهنم، يطلبون أنْ يُخَفِّفَ عنهم ولو ليوم واحد، فلا يُستجاب لهم، ولا يُخفف عنهم: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

فيرجونَ خزنة جهنم من الملائكة أنْ يَدْعوا الله ليخففَ عنهم يوماً من العذاب، فترفضُ الملائكةُ الدعاءَ لهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٤٩ ـ ٥٠].

ويَنظرُ الأَتْباع المعذَّبون حولَهم، فيرون متبوعيهم لهم إلى الكفرِ والشرك، ويتذكَّرون ما كان بينهم في الدنيا، يتذكَّرون دعوة متبوعيهم لهم إلى الكفرِ والشرك بالله، وتأليههم لهم، واعتبارِهم

آلهةً لهم، يعبدونَهم ويَدْعونهم ويطلبون منهم، فيرفعُ الأَتْباعُ أَصواتَهم، ويُصرحون بأَنَّ هؤلاء الطواغيت هم الشركاء الذين كانوا في الدنيا يُشركونهم مع الله، ويَدْعونهم من دون الله: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ..﴾.

يَصدرُ هذا القولُ من الأَتْباع وهم في غايةِ الحَنق على مَتْبوعيهم الذين أَوصلوهم إلى هذه النهاية، ويَهدفون من هذا القول إلى تحميلِ شركائِهم كبرائهم مسؤوليةَ إضْلالهم، وذلك لتكبيرِ جريمتِهم، الذي يُؤدِّي إلى مضاعفةِ عقوبتهم وعذابهم.

واعترافُ الأَتْباع بعبادةِ متبوعيهم ودعائهم من دون الله، إدانةٌ منهم لأنفسهم، وإِقرارٌ منهم بجريمتهم، ولا ينتجُ عنه نجاتُهم ولا براءتُهم، ولكنه شهادةٌ من الأَتْباع ضدَّ كبرائهم المتبوعين.

ماذا يكونُ ردُّ الفعلِ عند المتبوعين عندما يَسمعون اعترافَ الأَتْباع؟ ﴿فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

يُكَذِّبُ المتبوعون تابعيهم في كلامِهم السابق. فالأَتْباع يقولون عن سادتهم المتبوعين: رَّبنا هؤلاء شركاؤُنا الذين كنا ندعو من دونك. والمتبوعون يقولون لتابعيهم: إِنكم لكاذبون في كلامكم هذا.

وأَخبرتِ الآيةُ عن تكذيبِ المتبوعين لأَتْباعهم بصيغة: ﴿فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ﴾. ومعنى هذه الجملة: قالوا لهم: إنكم لكاذبون.

وفرْقٌ بينَ أَنْ يقول: قالوا لهم إنكم لكاذبون. وبين قوله:

ألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون.

ففي الجملةِ الثانية مزيدٌ من التأكيد، وتوضيحِ الكلام، وإيصالِه إلى المخاطَبين.

الإلقاءُ يُستعملُ أساساً في معنى الطرح. قال الراغبُ في المفردات: «الإلقاء: طرحُ الشيء حيثُ تلقاه، أي: حيثُ تراه. ثم صارَ في التعارفِ اسماً لكلِّ طرح.

ويقال: أَلقيتُ إليكَ قولاً، وسلاماً، وكلاماً، ومودة..»[1].

إنَّ السادةَ المتبوعين قد حرصوا في ردِّهم ـ على اعترافِ تابعيهم وإدانتهم ـ على توصيل تكذيبهم إلى أتباعهم، بطريقةٍ مصوَّرة مؤكَّدة.

فنحن عندما نتخيلُ الصورة التي يرسمُها قوله: ﴿فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾. نتخيلُ المتبوعين وقد أَخْرجوا من أفواههم شيئاً، شيئاً مجسَّماً، وأَوْصلوه إلى الأَتْباع، وطرحوه أَمامهم، فنظرَ الأَتْباعُ إلى ذلك المجسَّم، وتفحَّصوه، فإذا به جملة عجيبة مثيرة: إنكم لكاذبون.

وكأنَّ المتبوعين يكتبون جملة ﴿إِنَّكُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ على ورقة، يُخاطبون بها أَتْباعَهم، ثم يلفّونها، ثم يَرْمونها إلى طرفهم، فتُطرحُ هذه الورقةُ أَمامَهم، فيتناوَلونها ويقرءونها، ويُفاجأون بها: كيف يُكذِّبُنا سادتُنا وكبراؤنا في كلامنا؟ وكيف

---

(١) المفردات: ٧٤٥ـ٧٤٦.

يتبرّءون من عبادتنا؟ وقد كنّا عابدين لهم في الدنيا فعلاً!!

هذا التصويرُ الحيُّ لإلقاءِ القول إلى الأَتْباع، معروضٌ في قوله تعالى: ﴿فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون﴾. وفرْقٌ بعيدٌ بين هذا التعبيرِ المصورِ الحيّ، وبين قوله: فقالوا لهم إنكم لكاذبون.

لماذا كذّب المتبوعون أَتْباعهم في كلامِهم؟ الأَتْباع يقولون: ربَّنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك؟ فيردُّ عليهم المتبوعون قائلين: إنكم لكاذبون!

هل كان الأَتْباعُ كاذبين في قولهم؟ لا. كانوا صادقين، فقدْ كانوا في الدنيا يَعبدون السادةَ الكبراء، ويَدْعونهم من دون الله، ويجعلونَهم شركاءَ الله! وكان المتبوعون راضين بهذا الأمر، موافقين عليه، ولم يُكَذِّبوهم في الدنيا، فلماذا يُكذِّبونهم يوم القيامة؟

إنهم الآنَ مُعذَّبون في جهنم، وقد عَرفوا الآن أنهم كاذبون في ادِّعاء الأُلوهية، وأنَّ أَتباعَهم كاذبون في تأليههم. عَرفوا ذلك بعدما رأوا عجْزَهم وذُلَّهم، فهم عاجزون عن دفعِ العذابِ عنهم.

لقد كذَّبوا أَتْباعهم في عبادتِهم ودعائِهم واعتبارهم شركاءَ لله، بعدما ثبتَ لهم أنهم بشرٌ ضعاف عاجزون.

ويُفاجَأُ الأَتْباع بتكذيبِ متبوعيهم لهم. فيزدادون حسرةً وخزياً وذلاً، ويزدادونَ معرفةً بضياعِ حياتهم وضلالهم في الدنيا.

وقد أَشارتْ آياتٌ أُخرى من القرآن إلى تكذيب المتبوعين

المعبودين لأتْباعهم العابدين، ومعاداتِهم لهم. منها قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۝ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١ ـ ٨٢].

ومنها قوله: تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥ ـ ٦].

لقد عبدَ الأتْباعُ متبوعيهم من دون الله، ودَعَوْهم من دون الله، ولم يستجب المتبوعون لأتْباعهم في الدنيا، بل كانوا غافلين عن عبادتهم ودعائهم.. والآن يُعذّب العابدون مع المعبودين في جهنم، وتقعُ العداوةُ بين الأتْباع والمتبوعين، فيكْفُر بعضُهم ببعض، ويلعنُ بعضُهم بعضاً، ويكون المتبوعون المعبودون ضدّاً لأتْباعهم العابدين، ويَكفرون بعبادتهم لهم، ويُكَذِّبونهم في كلامهم.

هذا هو المصيرُ البائسُ لكلِّ مَنْ عبدَ غيرَ الله، وهذا هو تكذيبُ كلِّ معبودٍ بالباطل لكلِّ مَنْ عبده بالباطل.

ماذا يبقى أَمامَ الأتْباع؟ فها هم متبوعوهم يتبرءون منهم،

وهم أَحوجُ ما يكونون إليهم، ويَكفرون بهم، ويكذِّبونهم!

لم يبقَ أَمامَهم إلاّ الاستسلامُ الذليلُ للعذاب. قال تعالى: ﴿ وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾.

من هم الذين ألقوا إلى الله السَّلَم يومئذ؟ إنهم الأَتْباع الذين فوجئوا بتكذيبِ متبوعيهم لهم، أمّا استسلامُ المتبوعين لله بذلّةٍ وهوان وسْطَ النار فهذا مفهومٌ ضمناً، لأنَّ الجميع يكونون مستسلمين هناك لله.

واستسلامُ الأَتْباعِ لله، وهم في غايةِ الخزيِ والذل، والحسرة والندم، فها هم المتَبوعون ـ الذين أَفنوا أَعمارهم في الدنيا في خدمتهم وعبادتهم ـ يكذِّبونهم ويتبرءون منهم، وهاهم يَعرفون الآنَ مبلغَ خسارتهم وفداحةِ مُصابهم: ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾.

كان الأَتْباعِ يفترون ويَكذبون في الدنيا، عندما كانوا يؤلِّهون المتبوعين الكبِراء، وهاهم المتبوعون يَكفرون بعبادتهم، فأين آلهتُهم التي عبدوها من دون الله؟ ولو كان المتبوعون آلهةً حقاً فهل يتخلَّوْن عن عابديهم؟ ولو كانوا آلهةً حقاً فهل يَعجزون عن إنقاذ أَنفسهم؟

ومما يوضِّحُ معنى قول الله عن خسارةِ الأَتْباع هنا: ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ بعد براءة متبوعيهم منهم، قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ

﴿ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٣٧].

وتكذيبُ المتبوعين لأتْباعِهم في قولهم لهم: ﴿إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ لا يَعني براءتَهم من إضلال الأتْباع، فهم قد كفروا، وصدّوا عن سبيل الله، وأضلوا الأتْباع وأفسدوا في الأرض، وهذه الجرائمُ الثابتةُ لهم في الدنيا، تسببتْ في مضاعفةِ عذابهم: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾.

وهذه الآيةُ تدلُّ على أنَّ الكفارَ لا يتساوون بالعذاب في النار، وإنما هم يتفاوَتون في ذلك، حسبَ درجةِ كفرهم، وفظاعة أفعالهم.

إنَّ عذابَ المتبوعين أكثرُ وأشدُّ من عذاب الأتْباع في النار، لأنَّ المتبوعين هم السادة الكبراء، والقادة الزعماء، والملأ الطغاة، الذين يقودون الأتْباعِ والغوغاءَ في الكفر والشرك، ويَدْعون هؤلاء الأتْباعَ إلى تأليههِم وعبادتهم.

وتسجِّلُ الآيةُ مجموعةً من جرائم المتبوعين وفظائعهم التي استحقوا بها مضاعفةَ العذاب، وهي: أَنهم كفروا، وصدّوا عن سبيل الله، وهذا معناه أَنهم أَضلّوا الأتْباع، وأَبْعَدوهم عن الحق، وحارَبوا الحقَّ وأهلَه، وبذلك كانوا فاسدين في أنفسهم، مفسدين لغيرهم.

هذا هو مصيرُ الأتْباع والمتبوعين، مخلَّدين في النار، ونصيبُ المتبوعين من العذَاب أكثر من نصيب الأتْباع، وهذا

تحذيرٌ للأَتْباع كي يتخلّوا عن متبوعيهم وينفضّوا عنهم في الدنيا، كي لا يشاركوهم ذلك المصيرَ البائسَ الأسودَ في جهنم!

● ● ●

(٨)

الأتباع والمتبوعون في سورة الشعراء

قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝٩٠ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۝٩١ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٩٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ۝٩٣ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ۝٩٤ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ۝٩٥ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ۝٩٦ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٨ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٩٩ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝١٠١ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠٢ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٠٣ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾

[الشعراء: ٩٠ ـ ١٠٤].

هذه لقطاتٌ أُخرى تصوِّرُ بعضَ ما يكون بين الأتْباعِ والمتبوعين يوم القيامة، من تلاوُمٍ وتخاصُم، ثم ما يصابُ به كلٌّ منهما من حسرةٍ وندامة، وما يقعُ بهم من ذلة وهوان.

تبدأ الآياتُ بعرضِ ما ينتظرُ المتقين من نعيمٍ في الجنة، وما ينتظرُ الغاوين من عذابٍ في الجحيم: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝٩٠ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾.

ومعنى «أزلفت»: قُرِّبَتْ وأُدْنيت، والإزلافُ هو التقريب.

والمعنى: أنَّ الله يُزلفُ الجنةَ للمتقين ويقربها، عندما يكونون في أرض الموقف، وقبلَ دخولهم فيها، فيَنْظرون لها وهي قريبةٌ منهم، ويروْنَ ما فيها من نعيم، فيزدادون شوقاً إليها، ورغبةً في الوصولِ والدخول. فهذا الإزلافُ والتقريبُ مبالغةٌ في التشويق، ليزدادوا شعوراً بإنعام الله عليهم.

ومعنى ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾: أُظهرت الجحيمُ من بعيد، بحيثُ ينظرُ لها الغاوون، وهم يعلمون أنهم ذاهبون إليها، والهدفُ من هذا، المبالغةُ في قذفِ الهولِ والرعب في قلوبهم، لأنهم ينظرونَ لها من بعيد، ويشاهِدون أَصنافَ العذابِ الرهيب التي تنتظرُهم، ويوقنون أنهم سيصْلَونها عن قريب، وهذا فيه من الهولِ والرعب ما فيه.

ووُصِفَ أصحابُ النار هنا بوصْفِ الغاوين. والغاوون هم الضالّون الذين ضلّوا وغووا، فكفروا بالله وأَشركوا به غيرَه. فالغوايةُ هي الحالةُ التي كانوا عليها في الدنيا، والتي أَوصلتْهم إلى الجحيم.

والغاوون فريقان: المتبوعون من السادة والكبراء الذين غَوَوْا في أنفسهم فضلّوا وكفروا. ثم أَغْووا أَتْباعهم وأَضلّوهم، فتابَعوهم على الكفر.

والأَتْباعُ من المستضعفين، الذين استجابوا لغوايةِ متبوعيهم الغاوين وإضلالهم، فغوَوْا مثلَهم.

وقد بُرِّزت الجحيمُ للفريقين الغاوين: الأَتْباع والمتبوعين.

وبعدما بُرِّزت الجحيمُ للفريقيْن من بعيد، سيقوا إليها، وأُدخلوا فيها، واصطَلَوا بنارِها، واجتمعوا فيها معذَّبين.

وأَثناءَ تعذيبِ الأَتْباع بجانبِ المتبوعين تُوجَّه لهم أسئلةٌ يعرفون الهدف منها: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾.

لقد كانَ الأَتْباعُ في الدنيا يَعبدون المتبوعينِ من دون الله، ويجعلونَهم آلهة، ويَرجون منهم النفع، ويجعلونَ بأيديهم كلَّ شيء.

والآن انتهى كلُّ شيء، فهاهم معذَّبون في النار، لعبادتِهم المتبوعين، وهاهم المتبوعون معذَّبون معهم، وهم الآن يَعرفون كم كانوا مخطئين عندما عبدوهم، والآن يَعرفون أنهم ليسوا آلهة.

ومع معرفة الأَتْباع لكلِّ هذا فإنَّ الملائكةَ تسألُهم سؤالاً للتوبيخ والتأنيب: أين ما كنتم تعبدون من دون الله؟ هل ينصرونكم أو ينتصرون؟.

لا يُرادُ من السؤال حقيقةَ الاستفهام، ولا البحثَ عن مكانِ المتبوعين، ولكنَّ السؤالَ عن نفعِ المعبودين المتبوعين لأَتْباعهم العابدين.

يقولون للأَتْباع: لقد عبدتُم في الدنيا المتبوعين، واعتقدتم أنهم آلهة، بيدهم الضرُّ والنفع، فأين هؤلاء المعبودون منكم الآن؟ هل ينفعونكم؟ هل يدفعون الضرَّ عنكم؟ هل يدفعون العذاب عنكم؟ هل يَنصرونكم ويُنقذونكم ويُخرجونكم من النار؟ أو على الأقلِّ ينصرونَ أنفسهم؟ هل يُنقذون أنفسهم من النار؟

لماذا المتبوعون معذَّبون معكم في النار؟ لماذا هم ضعفاءُ أذلاّءُ عاجزون مُهانون مثلكم؟ ولو كانوا آلهةً حقاً هل كانوا معذَّبين مثلكم؟ ولو كانوا آلهةً حقاً هل كانوا أذلاّءَ ضعفاءَ وسط النار؟

هذه أسئلةٌ يحملُها قولُ الملائكة للأتْباع: أين ما كنتم تعبدون من دونِ الله، هل ينصرونكم أو ينتصرون؟

وهذا فيه من التهكمِ والتوبيخِ ما فيه، ليزدادَ الأتْباعُ شعوراً بالخزي والذلّ والهوان.

ويَعرفُ الأتْباعُ الهدفَ من السؤال، وأنَّ الجوابَ عليه غيرُ مراد، فلا يُجيبون ولا يتكلمون ويُسكتهم الخزيُ والذل، وتُخرسهم الحسرةُ والندامة.

تقدِّمُ الآياتُ بعد ذلك لقطةً أخرى، تصورُ الأتْباعَ والمتبوعين وكلَّ الكافرين، وهم في طريقهم إلى العذاب: ﴿ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾.

«كُبكبوا» فعلٌ مضاعَف من «كُبّوا» يدلُّ على تكريرِ الفعل، لأنَّ تكريرَ اللفظ يدلُّ على تكريرِ الفعل، مثل: كفكف وزلزل ووسوس.

وهذا الفعلُ لم يرِدْ في القرآن إلا في هذا الموضع، وهو فعلٌ مصوِّر، يرسمُ بحروفِه وجرسِه صورةَ الإهانةِ والإذلال التي ترافقُ الأتْباع والمتبوعين، عند إِلقائِهم في جهنم.

«كُبكبوا.. وإننا لنكادُ نسمعُ من جرس اللفظ صوتَ تَدَفُّعِهم وتَكَفُّئِهم وتَساقُطِهم، بلا عنايةٍ ولا نظام، وصوتَ الكركبةِ الناشئَ من الكبكبة، كما ينهارُ الجُرْف فتتبعه الجروف. فهو لفظٌ مصوِّرٌ بجرسه لمعناه. وإنهم لغاوون ضالون، وقد كُبكبَ معهم جميعُ الغاوين..»[1].

وعندما نتخيلُ المشهدَ الذي ترسمُه هذه الآية، نتخيلُ منظرَ الأتْباع والمتبوعين، وقد حُمِلوا في حاملة، عربةٍ أو سيارة أو رافعة، كما تُحملُ الأشياءُ والأمتعة، وكُدِّسوا فيها كما تكدَّسُ الأمتعةُ التافهةُ المستهلكة وأُوقفتْ هذه العربةُ على شفير جهنم، كما توقفُ عربةُ المستهلكات على شفيرِ الوادي، ثم «كُبكب» الأتْباع والمتبوعون، وأُفرغوا من تلك العربة، وأُلقوا في جهنم إلقاء، كما تُفرِغُ العربةُ حمولتَها من الأمتعة، ومنظرُ الأمتعةِ والصناديقِ والأكياس وهي تتهاوى من العربةِ إلى الوادي، وصوتُ كبكبتها وكركبتها وهي تتساقط، يقربُ للخيالِ منظرَ الأتْباع والمتبوعين وهم يُكَبْكَبون ويُكَرْكَبون، وهم يَتدافعون أثناءَ تساقطِهم وتهاويهم في جهنم.

وهـذا مشهـدٌ يُلقـي ظـلالَ الاحتقـار والإذلال والإهمـال والهوان، وإلا فما معنى تشبيهِهم بالأمتعةِ المستهلكة، والصناديقِ المبعثرة، هي تتهاوى في الوادي؟.

---

(١) في ظلال القرآن ٥: ٢٦٠٥.

يُكبكَبُ ويُكركَبُ الأتْباع والمتبوعون في الجحيم، وهم جميعاً غاوون، وهم جميعاً جنودُ إبليس: ﴿ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ .

وبعدما ينتهي مشهدُ كبكبةِ الأتْباع والمتبوعين في طريقهم إلى جهنم يستقرون فيها، ويَصْلَوْن عذابَها وسعيرَها، وهناك يَحصلُ بين الأتْباع والمتبوعين تخاصُم، يخاصِمُ كلُّ فريقٍ الآخَر، يخاصِمُ الأتْباعُ المتبوعين، ويُحمِّلونهم مسؤولية ما وقع بهم، ويخاصِمُ المتبوعون أتْباعهم، ويردّون عليهم اتهاماتِهم: ﴿ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ .

وقد أشارتْ آياتٌ أُخرى إلى حقيقةِ التخاصم بين الأتْباع والمتبوعين في النار. منها قوله تعالى: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٥٩ ـ ٦٤].

ومنها قولُه تعالى: ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ [ق: ٢٣ ـ ٢٨].

يخاصِمُ الأتْباعُ المتبوعين بعدما يستقرّون معهم في الجحيم، فماذا يقولون لهم؟: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

يُقسِمُ الأَتْباعُ بالله صادقين أَنهم كانوا في الدنيا ضالّين، وكانوا في ضلالٍ مبينٍ واضحٍ بيِّن، لكنهم لم يدُركوا ضلالهم في الدنيا ولم يَعرفوه، رغم أنه مُبينٌ واضح، لأنهم كانوا في غفلة، وعلى عيونهم غشاوة.

أمَّا الآنَ في جهنم فقد وَقَفوا على ضلالهم المبين وعرفوه، لكن بعدَ فواتِ الأوان.

لماذا كانَ الأَتْباعُ في ضلالٍ مبين في الدنيا؟ لأنهم عَبدوا المتبوعين، وجعلوهم آلهة، وسَوَّوهم بربِّ العالمين: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

يَعترفُ الأَتْباعُ أَمامَ متبوعيهم بخطئِهم وبضلالهم، ويلومون أنفسهم أَمامَ متبوعيهم، وكأنهم يقولون لهم: كم كنا ضالين مخطئين في الدنيا، وكم كنا سُذَّجاً مغفَّلين، وذلك عندما جعلْناكم آلهة، وعبدناكم كما تُعبَدُ الآلهة، وسوَّيْناكم بالله ربِّ العالمين، وجعلناكم مماثِلين لله، عندما جعلْنا الضرَّ والنفعَ بأيديكم، وعندما جعلْنا الحكمَ والأمر بأيديكم، وعندما وجَّهْنا طاعَتنا وخوفَنا ورجاءَنا إليكم.

جعلناكم آلهةً مساوين لله، ونسينا أنكم بشرٌ مثلُنا، وأنكم ضعفاءُ عاجزون مثلُنا، فأين كانت عقولُنا عندما سوَّيناكم برب العالمين؟

هل أنتم آلهة؟ وأنتم تعذَّبون معنا في جهنم؟ وأنتم ضعفاءُ عاجزون مثلنا؟ كيف جعلناكم آلهة إذن؟

ثم يقولُ الأتْباعُ لمتبوعيهم: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ وهم بذلك يُحَمِّلون المجرمين مسؤوليةَ إضلالهم وإغوائِهم، ويَعنون بالمجرمين المتبوعين أنفسهم، لأنهم هم الذين أَلَّهوا أنفسهم، ودعوا الأتْباع إلى تأليههم.

وكأنهم يقولون للمتبوعين: أنتم السببُ في إضلالنا وإِغوائنا، وأنتم أَمرتُمونا بالكفر فنفَّذْنا أوامَركم وأطعْناكم، فأنتم المجرمون، الذين أجرمتم معنا، وجنيتُم علينا!!

والملاحظُ أنَّ الأتْباعَ يتمتَّعون في جهنم بجرأةٍ وشجاعة، حيث يَنظرون إلى متبوعيهم، ويخاطبونهم ويتهمونهم ويُحمِّلونهم المسؤولية، ويقولون لهم: أنتم غاوون ومجرمون ومضلون، وأنتم بشرٌ مثلُنا ضعفاء عاجزون، وأنتم لستم آلهة، ولا يجوزُ أن تُعبدوا من دون الله، ولا أن تكونوا شركاءَ لله.

الأتْباعُ الجريئون الشجعان الآن، كيف كانوا أَمامَ سادتِهم وكبرائهم في الدنيا؟ كانوا أَمامَهم عبيداً أذلآء، مستضْعَفين مقهورين مسحوقين، لا رأيَ لهم ولا حريةَ ولا إرادةَ ولا اختيار، لا يَنظرون إلى متبوعيهم إلاّ نظرةً ملؤُها الذلُّ والهوان، ولا يكلمونهم إلاّ بعباراتٍ كلُّها الضعف والاستسلام، ويقفونَ حياتَهم على تأليهِ وعبادة هؤلاء الآلهة.

والآن، وبعدما فقدَ متبوعوهم مراكزَهم وهالاِتهم، عرفوهم

على حقيقتهم، فتجرءوا عليهم! لكن متى؟ بعد فواتِ الأوان!

وبعد ذلك يَعرفُ الأتْباعُ مقدارَ خسارتِهم وضياعِهم وهوانهم، فيطلقونها عباراتٍ تقطرُ حسرةً وحزنا وألماً: ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ۝ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾.

هذه هي نهايتُهم وسطَ النار، ضعفاءُ أذلاّء، معزولون عن الأعوان والأنصار، متروكون لعذابهم، فليس لهم شافعٌ يشفعُ لهم ويحاولُ إخراجَهم من العذاب، وليس لهم صديقٌ حميم يواسيهم ويشاركهم أحزانهم ومآسيهم!

هذه هي نهايةُ كلِّ مَنْ قطعَ صلتَه بالله، وتابعَ أَعداءَ الله، أنْ يُلقىٰ في جهنم، وأنْ يلاقي مصيرَه الأسود بنفسه، بدون شافعٍ ولا ناصر، ولا صديقٍ ولا معين.

وأخيراً يصرحُ الأتْباعُ الأذلاءُ بأمنيةٍ يتمنونَها، مع علمهم بأنها لن تتحققَ لهم: ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

والكرَّةُ العودةُ إلى الدنيا مرةً أُخرى، فهم يتمنّون لو عادوا إلى الدنيا من جديد، وعُرِضَ عليهم الإيمانُ من جديد، فسوف يؤمنون ويتخلّونَ عن عبادةِ سادتهم متبوعيهم.

وأُمنيتهم هذه بسبب وقوفِهم على مدى خسارتِهم، وحسرتِهم على ما ضيَّعوا فيه حياتهم في الدنيا، من عبادة الطغاةِ المستبدّين وتأليههم. وهذه الأمنيةُ غيرُ المتحققة تستكملُ تصويرَ خزيِهم وندمهم وذلِّهم، وهم يصلَون عذابَ النار!.

● ● ●

(٩)

الأتباع والمتبوعون في سورة القصص

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [القصص: ٦٢ ـ ٦٦].

تَعرضُ لنا هذه الآياتُ ما سَيجري بين الأتْباع والمتبوعين يوم القيامة، وهم مشتركون جميعاً في العذاب.

والموقفُ المعروضُ هنا فيه توبيخُهم وتقريعُهم، كما فيه اعترافُ المتبوعين بإغواءِ أَتباعهم، وبراءَتُهم من أولئك الأتْباع، وندمُ الأتْباع على متابعتهم لسادِتهم وكبرائهم.

تبدأ الآياتُ بعرضِ مشهدِ الفريقيْن يوم القيامة، مجموعين معاً، بذلّة وخزي وحسرة ندامة.

ويُناديهم اللهُ في ذلك الموقف، ويسألُهم سؤالاً: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ؟﴾.

وظاهرُ الآيةِ أنَّ السؤال موجَّهٌ للمشركين جميعاً، أتْباعاً ومتبوعين لكنَّ الآية التاليةَ تشيرُ إلى أنَّ السؤال موجَّهٌ للأَتْباع دون المتبوعين. ولكنَّ المتبوعين هم الذين يتولَّوْن الجواب، معترفين بالإغواء: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾.

إذن يسأل اللهُ الأتْباع: أين شركائي الذين كنتم تزعمون؟

أينَ الذين عبدتُموهم من دون الله؟ أين هؤلاء الشركاءُ الذين جعلتموهم آلهةً مع الله؟ أين هؤلاء الذين جعلوا أنفسهم آلهةً لكم، مع أنهم بشرٌ مثلكم فخضعتُم لهم واتبعتموهم، وجعلتم لهم الأمْرَ والنهي؟.

وعلى هذا يكون المرادُ بالشركاءِ المسؤول عنهم المتبوعون من السادةِ والكبراء، الذين جعلوا أنفسهم آلهة، مثلُ فرعون الذي قال لقومه: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص: ٣٨].

لقد عبدَ الأتْباعُ الأذلاّء بشراً مخلوقين مثلَهم، كانوا سادةً كبراء، وجعلوهم شركاءَ لله، فيسألُهم اللهُ يوم القيامة: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون؟

أينَ سادتُكم وقادتُكم ومتبوعوكم الذي جعلتموهم شركاءَ لي؟ أين هم الآن؟ هل هم آلهةٌ فعلاً؟ هل بيدِهم شيءٌ من الأمر؟ هل يَقدرون على نصرتكم ومساعدتكم؟

وهذا السؤالُ من الله للأَتْباع للتوبيخِ والتقريعِ، والذم

والتأنيب، إنه يذمُّهم ويوبِّخُهم لعبادةِ سادتهم المتبوعين في الدنيا، ويوجِّهُ السؤال إليهم ليشعروا بمزيد من الخزي والهوان والحسرة.

ويَعرفُ الأتْباع حقيقة السؤالِ والهدفَ منه، فلا يُجيبون عليه، لأنَّ الجوابَ عليه غيرُ مراد، ويتلقَّونه بخزيٍ وذلّةٍ وحسرة، ويُسكتُهم ذلك عن الجواب.

ويَسمعُ المتبوعون السؤالَ الموجَّهَ لأتْباعهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ؟﴾ ويَعلمون أَنهم هم المقصودون بالسؤال، ويلاحظونَ خزيَ الأتْباع وهوانَهم، الذي أسكتهم عن الجواب، فيجيبون هم، ويكون جوابُهم عجيباً مثيراً: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾.

وقد وصفَتْهم الآيةُ بأنهم ﴿ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ ومعناه: أنه وقعَ عليهم قَدَرُ الله، وانطبقَ عليهم حكمُه وأمْرُه، وهو خلودُهم معذّبين في النار.

وحقَّ عليهم القولُ بسببِ كفرهم، لقد كان أمامَهم طريقان: طريقُ الإيمان والخير، وطريقُ الكفر والشر، ووُجِّهتْ لهم دعوتان: دعوةٌ للإيمان ودعوةٌ للكفر، فاختاروا طريقَ الكفر، ولبّوا دعوةَ الشياطين، وهذا من سوءِ اختيارهم ونظرتهم، وهم بهذا الاختيار السيءِ حقَّ عليهم قدرُ الله، وخلَّدهم في جهنم.

اعترفَ المتبوعون الكافرون بأنهم أغووا أتباعهم: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾.

والمعنى: يا ربَّنا هؤلاء أَتْباعُنا الذين اتَّبعونا في الدنيا، واستسلموا لنا، لقد قُمنا بإغوائِهم وإِضلالهم وفتنتهم، وبذلك صرَفناهم عن الحق، وأَبْعدناهم عن الإيمان، وأوقَعْناهم في الكفر.

وهذا اعترافٌ من المتبوعين عجيب، وهو إدانةٌ منهم لأنفسهم، وإقرارٌ بأنهم السببُ في ما حَلَّ بأَتْباعهم من العذاب. إِنهم يعترفون ويُقِرّون الآنَ في جهنم، بينما كانوا في الدنيا يَخدعون أَتْباعهم ويُمَوِّهون عليهم، ويزعمونَ لهم أنهم مهتدون، وأنَّهم يهدونهم إلى سبيل الرشاد!!

ويُضيفُ المتبوعون قائلين: ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ أي: لقد كانَ سادةٌ كبراءُ قبلنا، هم الذين قاموا بإغوائِنا وإضلالِنا، ونحن بدورنا قُمْنا بإغواءِ أتْباعنا، كما غَوْينا على أيدي من أغوونا.

وهم بهذا يُشيرون إلى استمرارِ مسلسلِ الإغواء والإضلال، عبرَ المراحلِ والأجيال، يتواصى عليه كبراءُ كلِّ جيل، ويُنشِّئون عليه الأجيالَ القادمة، لتتولّى عملية الإضلال والإغواء.

ويُضيفونَ إلى إقرارهم السابق براءةً مثيرةً من أَتْباعهم، فيقولون لله: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾.

هذه هي نهايةُ الصلةِ بين المتبوعين وأَتْباعهم، فبينما أَفنى الأَتْباعُ أَعمارَهم في الدنيا في خدمةِ متبوعيهم وطاعتهم، بل

تأليهِهم وعبادتهم، يقوم المتبوعون بالبراءةِ من هؤلاء الأتباع!

أَهذه هي المكافأةُ التي يقدِّمونها لهم؟ إنها خسارةٌ للأَتْباع ما بعدها خسارة! وهذا هو مصيرُ كلِّ مَن اتبعَ الباطل، وتابعَ أَصحابَه الطغاة!!

وبعَد براءةِ المتبوعينِ من أَتْباعهم، يفاجئونهم مفاجأةً أُخرى، عندما يُصرِّحون بأنَّ الأَتْباع لم يكونوا عابِدين لهم في الدنيا، لم يعبدوهم ولم يؤلهوهم.

والمتبوعون في هذا الكلام كاذبون، فالأَتْباعُ كانوا يعبدونهم في الدنيا، حيث اعتبروهم آلهةً وشركاء لله، وقدَّموا لهم العبادةَ والطاعة.. الآن يُنكرون أنْ يكونوا عبدوهم، وهذا كذبٌ وتَنَصُّلٌ من هؤلاء المتبوعين.

ولا غرابة في ممارسةِ المتبوعين الكذبَ يومَ القيامة، فهم كانوا كاذبين في الدنيا، وقد تغلغلَ الكذبُ في كيانِهم، وصارَ سجيةً ملازمةً لهم.

وتخبرُنا نصوصُ القرآن أَنّه في بعض مواقفِ يوم القيامة ومحطاته يكذب الكفار، إمّا لظنِّهم أنَّ الكذبَ سيُنجيهم، أو مبالغةً في خوفِهم وفزعِهم من أهوالِ العذاب، بينما يَمرون بعد ذلك في مواقفَ ومحطاتٍ أُخرى يعترفون فيها، ويَصْدُقون في كلامهم، ولا يكتمون الله حديثاً. فلا تعارضَ ولا تناقضَ بين هذه النصوص القرآنية.

بعد براءةِ المتبوعين من أَتْباعهم، ونفيهم أنْ يكونوا عبدوهم

في الدنيا، على مسمع من هؤلاء الأتْباع، تُوجِّهُ الملائكةُ للأتْباع طلباً، وهم في غايةِ المفاجأةِ والدهشة لِما يسمعون من أسيادهم: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾.

من هم شركاؤُهم؟ إنهم المتبوعون الذين عَبدوهم في الدنيا مِن دونِ الله، وجعلوهم شركاءَ لله؟ والذين تبرَّءوا منهم الآن، وأنكروا عبادتهم لهم!

تأمرهم الملائكةُ أنْ يَدْعوا شركاءَهم، أي: أنْ يَطلبوا منهم نصرتهم، وتفريجَ كربهم، وكشف غَمِّهم، وهم يعلمون أَنهم عاجزون مثلَهم. وهذا الطلبُ من الملائكة لتوبيخِ الأتْباع وتقريعِهم وتأنيبهم، وإشعارِهم بخسارةِ حياتهم وأعمارهم، التي أفنوها في عبادة هؤلاء!

ويدعو الأتْباعُ شركاءَهم متبوعيهم، ويطلبونَ منهم نصرتَهم ومساعدتَهم. لكنَّ المتبوعين الشركاءَ لم يستجيبوا للأتْباع، ولم يلَبوا لهم دعوتهم، ولم يساعدوهم، فازدادَ الأتْباعُ حسرةً وألماً، وشعوراً بضياعِهم وخسارتهم.

ورأى الأتْباعُ العذابَ أمامهم، وأيْقنوا بعجْزِ المتبوعين الشركاءِ عن دفعِ العذاب عنهم، فازدادوا خوفاً ورعباً، فها هم الآن سائرونَ إلى العذاب الرهيب، ولن يوقفه عنهم أحد!

عند ذلك يتذكَّرُ الأتْباع الدنيا، ويتذكَّرون دعواتِ الرسل وأتْباعِهم التي كانت توجَّه لهم، ليؤمنوا ويهتدوا، ويتخلَّوا عن

متابعةِ المتبوعين الكبراء، كما يتذكَّرون النهاية السعيدةَ التي انتهى إليها في الجنة المؤمنون الصالحون الذين استجابوا لدعوة الحق واهتدوا، ففازوا وسعدوا.. يتذكَّرُ الأتْباع كلَّ هذا، ويزدادون حسرةً وألماً، ويتمنَّون لو آمنوا في الدنيا، ولو اهتدوا واستجابوا لدعوةِ الحق: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾.

وبعدَ أن يَصدرَ من الأتْباع والمتبوعين ما أخَبرتْ عنه آياتُ المشهد، وبعد شعورِ كلِّ فريقٍ بالخزي والذل والهوان، يوجَّهُ للفريقين معاً سؤالٌ آخر، فلا يُجيبون عليه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ..﴾.

وهذا السؤالُ الموجَّهُ للأتْباع والمتبوعين معاً، بهدفِ التوبيخ واللومِ والتأنيب، ليشعروا بمزيدٍ من الخسارةِ والندمِ والحسرة. يُقال لَهم: لقد بعثَ اللهُ لكم رسلاً في الدنيا، ودَعَوْكم إلى الله، وطلبوا منكم الإيمان. فماذا كان جوابُكم لهم؟ وماذا كان موقفُكم من دعوتهم؟ وكيف تعاملْتُم معهم؟

ويعودُ الأتْباع والمتبوعون بذاكِرتهم إلى الدنيا، ويتذكَّرون موقفَهم المخزي من المرسلين، ذلك الموقفَ الذي أوصلَهم نار جهنم، عند ذلك لا يُجيبون على السؤال، لا يُجيبُ عليه الأتْباعُ لخزيهم وخوفِهم من العذاب، ولا يُجيبُ عليه المتبوعون أيضاً لخزيهم وخوفِهم من العذاب، وبذلكَ تعمى عليهم الأنباء: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ﴾، فلا يَعرفون جواباً، ولا يُقدِّمون

رَدّاً، ويَحتارون ولا يَدرون ماذا يقولون. ولا يَسألُ بعضُهم بعضاً، طالباً منه الجوابَ على السؤال: ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾.

وتتركُ الآياتُ الأَتْباعَ والمتبوعين جميعاً في جهنم، تتركُهم فيها مع خزيِهم وحسرتِهم، ومع عذابهم وعقابهم، وتقدِّمُ لنا لقطةً مشرقةً منيرة، لقطةً للمفلحين المنعَّمين في الجنة: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ [القصص: ٦٧].

إنه شتّانَ بين النهايتين: نهايةِ مَنْ تاب وآمَنَ وعملَ صالحاً، حيثُ النعيمُ المقيمُ في الجنة، ونهايةِ الأَتْباع والمتبوعين الخاسرين، حيثُ العذاب الرهيب في النار!!

• • •

(١٠)

الأتباع والمتبوعون في سورة الأحزاب

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾
[الأحزاب: ٦٤ ـ ٦٨].

مشهدُ الصلةِ بين الأتْباعِ والمتبوعين في هذه السورة مشهدُ عنيفٌ صاخب، وحيٌّ متحرك، يَعرضُ ما سيكونُ بين الأتْباعِ والمتبوعين من براءةٍ وفرقةٍ يومَ القيامة، ويسجِّلُ ما سيقولُه الأتْباع في النار، وهم يصلَوْنَها، وتُقلَّبُ وجوهُهُم فيها، وما سيشعرونَ به من خزيٍ وحسرةٍ وذلة وندامة.

وهذا المشهدُ الصاخبُ يتناسبُ مع اسم السورة وموضوعها، فالآياتُ التي عرضت المشهدَ من سورة «الأحزاب» وهذه السورةُ لها من اسمِها نصيبٌ كبير، وموضوعُها هو اجتماعُ أحزابِ الكفر وقواه وتحالفهم، في عهدِ رسول الله ﷺ، وتوجُّهُهم نحو المدينة، ليقضوا على الإسلام والمسلمين فيها، وكان ذلك في

السنةِ الخامسةِ من الهجرة، وسُميت الغزوةُ غزوةَ الأحزاب أو غزوةَ الخندق.

والذي تولَّى تحزيبَ الأحزاب وتجميعَها ملكُ اليهود «حُيَيُّ ابْنُ أَخْطب» ومَن معه من شياطين اليهود، واستجابتْ له بعضُ أحزابِ العرب الكافرة وقبائلهم، مثل قريش وغطفان.

وانتهتْ غزوةُ الأحزاب بإحباطِ مؤامرةِ الأحزاب الكافرة، ونصْرِ الله لعباده المسلمين.

الأحزابُ الكافرة مكَّونَةٌ من فريقين: قيادةٍ من الملأ المتبوعين، وهم «السادة والكبراء» المذكورون هنا. وجماهير سذَّجٍ من الأتْباع المتابعين لسادتهم. يُطيعُ الأتْباع سادتَهم وكبراءَهم في الدنيا طاعةً عمياء، لكنهم يَدْعون عليهم ويلعنونهم في الآخرة.

تقررُ آياتُ المشهد أن اللهَ لعنَ الكافرين من الأتْباع والمتبوعين، وأعدَّ لهم نارَ جهنم الملتهبة المسعرة، وأنَّ اللهَ يُدخلهم فيها، فيخلَّدون في عذابها، وأنهم لا يقضى عليهم فيموتوا، ولا يُخَفَّفُ عنهم العذاب، ولو ليومٍ واحد.

وهؤلاء الكفار وسطَ النار لا يجدون ولياً يلي أُمورَهم، ويَحلُّ مشكلاتِهم، ولا يجدون نصيراً ينصرُهم، أَو يدفعُ عنهم العذاب، لأنه لا أولياءَ لهم من دون الله، ولا يوجدُ هناك نصير، ينصرهم من عذاب الله.

والمفارقةُ العجيبةُ أنَّ هؤلاء الكفار كانوا في الدنيا يعتدّون

بمراكزِهم وأعوانِهم وأَنصارهم وأَوليائهم، ويَتيهون بها على الآخرين. فهاهم الآن معذَّبون في النار، بحاجةٍ ماسةٍ لأيِّ وليٍّ أو نصير، فأينَ أولياؤهم ونصراؤهم الذين كانوا يعتمدون عليهم؟؟

وعَرضت الآياتُ صورةً من عذابهم في النار، وذلك في قوله: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾.

وحتى نُقربَ إلى أَذهاننا هذه اللقطةَ المثيرةَ المخيفة، وهي تقليبُ وجوهِ الكفار في النار، نتذكَّرُ منظرَ تقليبِ اللحم على النار عند شَيِّه، بهدفِ إِنضاجِه، فكلُّنا يَعرفُ كيفَ يُقَلَّبُ ذلك اللحمُ على الوجْهين!!

وتصوَّرْ منظرَ الكفار - أَتْباعاً ومتبوعين - وهم مقيَّدون بالسلاسل، وقد جُمعتْ أَيديهم إلى أعناقهم. بحيث يَعجزون عن اتِّقاءِ النار بأَيْديهم، فيتَّقونَها بوجوههم، كما قال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٢٤].

ووجوهُهم الكالحةُ عاجزةٌ عن أنْ تَقيهم العذاب، فتَصلى هذه الوجوهُ في النار، ويَسيلُ ماؤُها، ويُشوى لحمُها، وإذا نضجَ جانبٌ من هذه الوجوه، قُلبتْ إلى الجانب الآخر لينضجَ شَيّاً، وبعدما ينضجُ شَيّاً، يُعادُ الجانبُ السابقُ ليَصْلى النار، وهكذا يتمُّ التعاقبُ بين جانبي الوجه، ويُقلَّبُ الجانبان في النار إلى الأبد!!

وتُقلَّبُ وجوه الفريقيْن في النار، الأَتْباع والمتبوعين.

أمّا المتبوعون من السادة والكبراء، فلا تَنسبُ لهم آياتُ هذه السورة كلاماً ولا نَدَماً ولا حسرة، أَثناءَ تقليب وجوههم في النار.

بينما نسبتْ كلاماً أسيفاً حَزيناً، يصدرُ عن جماهير الأَتْباع أثناءَ التقليب والتعذيب: ﴿يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ۝٦٦ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ۝٦٧ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾.

يتكلمُ الأَتْباع المعذَّبون في هذا الكلام عن أمريْن:

الأول: طاعةِ الله وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام، فيقول: ﴿يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾.

والذي دفعهم إلى هذا القول، والنطقِ بهذه الأمنية، أَنهم يتذكَّرون المصيرَ السعيدَ الذي انتهى إليه المؤمنون، فبينما هؤلاء الأَتْباعُ تقلَّبُ وجوههم في النار، فإنَّ المؤمنين الآن منعَّمون في الجنة، وهم الآن يَعرفون الفرقَ البعيدَ الشاسعَ بين مصير كلٍّ منهما، وشتّان بين مؤمنين منعَّمين في الجنة، وبين كفار معذَّبين في النار!

وقد ذهبَ الأَتْباعُ المعذَّبون بذاكرتهم إلى الحياةِ الدنيا، فقد كانوا يعيشون مع المؤمنين في الدنيا، وبعثَ اللهُ رسولاً، ودعاهم إلى الإيمان والعبادةِ والطاعة.

أما المؤمنون فقد قَبلوا دعوةَ الرسول عليه الصلاة والسلام، واستجابوا له، وأَطاعوه في كلِّ ما طلبه منهم، وهاهم الآن

يَحصلون على نتيجةِ تلك الاستجابة والطاعة، إنهم فائزون رابحون، منعَّمون في الجنة.

عندها يَشعرُ الأتْباع المعذَّبون ببالغِ الحسرةِ والأسى، والحزن والندم، فيتمنّون أنْ لو فَعلوا في الدنيا ما فعلَ المؤمنون، فآمنوا واستجابوا وأطاعوا الله والرسول، لو فَعلوا ذلك لنجوا من التقليب في النار، ولكانوا الآن مع المؤمنين في الجنة.

فيطلقونها جملةً حزينة، بنبرةٍ أسيفة: ﴿يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾.

الثاني: الندم لطاعتِهم السادةَ والكبراء، والإدانةِ واللعنةِ لهؤلاء السادة والكبراء، وطلب مضاعفةِ العذاب لهم: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾.

ويمكنُ أنْ نستخرجَ من هذا الكلام الحقائقَ التالية:

١ ـ كانت في حياتِهم الدنيا دعوتان: دعوةٌ إلى الإيمانِ بالله ورسله، وطاعةِ الله ورسله، ودعوةٌ إلى الكفر بالله ومعصيته وعدمِ طاعته.

وكان يقومُ بالدعوةِ الأولى المباركة، الرسلُ وأتْباعُهم المؤمنون، بينما كان يقومُ بالدعوةِ الثانية، الملأُ المستكبرون من السادة والكبراء، الذين كانوا يتولّوْن مواجهةَ الرسل وأتْباعِهم.

٢ ـ استجابَ الصالحون لدعوةِ الرسل فأطاعوا اللهَ ورسله، واختاروا الطريقَ القويم، وهم بذلك عَصوا السادة والكبراء

المستكبرين، وخالفوا أوامرهم، ولم يطيعوهم، ودفعوا ثمنَ عصيانهم وعدمِ طاعتهم لهم غالياً في الدنيا، لكنهم بذلك نالوا رضوانَ الله.

بينما استجابَ الأتْباعُ المستضعفون لدعوةِ الملأ المستكبرين، ونَفَّذوا أوامر السادة والكبراء، واختاروا الطريقَ الأعوج، فكفروا بالله ورسله، وعَصَوه وخالَفوا أوامره، وأطاعوا سادتَهم وكبراءهم، وتابعوهم على الباطل والضلال. وهاهم الآن يدفعونَ ثمنَ ذلك عذاباً في نار جهنم.

٣ ـ المرةُ الوحيدةُ التي يُطلق فيها على المتبوعين اسمُ «سادتنا وكبراءنا». فقد كانَ يُطلَق عليهم أحياناً اسمُ «الملأ»، وأحياناً اسمُ «الذين اتبعوا» وأحياناً اسم «الذين استكبروا».

سمّاهم الأتْباع المستضْعَفون هنا «سادتنا»، لأنهم هكذا نظروا لهم في الدنيا، كان هؤلاء السادة هم القادة والزعماء، والمسؤولين والرؤساء، الذين بأيديهم القرارُ والمركزُ والمال والجاه.

اعتبرَهم الأتْباع سادةً لهم «سادتنا»، بينما اعتبروا أنفسهم عبيداً لهم، يملكُهم أسيادُهم كما يملك السيدُ عبيده ومواليه، ويحرِّكونهم كما يُحرِّك السيدُ عبيده ومواليه، وفقدوا أمامَ أسيادِهم ومالكيهم الإرادةَ والحرية، والاختيار والقرار، وكانوا أمامهم مجردَ أصْفار!.

كما اعتبرهم الأتْباعُ كبراءَ أمامهم، «وكبراءنا»، كبُروا في

عيون الأتْباع، فكانوا عظماء جبابرة، لم يكونوا كُبراءَ في أَحجامهم ولا أَجسامهم ولا أَوزانهم، إِنما كانوا كبراءَ في مراكزهم ومسؤولياتهم وقراراتهم.

جعلوا كلَّ شيء بين أَيْديهم، الأمرَ والنهي، والمالَ والجاه، والإرادة والاختيار، والمركزَ والعمل، الدنيا وما فيها، هم يأخذون، وهم يمنحون، وهم يَحرمون ويَمنعون، بينما حَرَموا الأَتْباع من كل شيء، فلا يَصلُهم أيُّ شيء إلاّ عن طريقهم، باعتباره فَضْلاً ومنحةً منهم للأَتْباع، وجَرَّدوا الأَتْباع من كلِّ حقٍّ أو إرادة.

وإذا كان السادةُ المتبوعون كبراءَ في عيون الأَتْباع، فإنَّ هؤلاء الأَتْباعَ في عيون أنفسهم صِغارٌ أَقْزام، وأَصفارٌ بدون أَرقام، صَغُروا في عيون أَنفسهم وضَعُفوا، وذَلّوا وجبنوا، ورضوا أنْ يكونوا هكذا، عالةً فقراء ضعفاء «صُغَراء»، أَمام أَسيادِهم الكُبَراء.

وهاهم الآن يَدفعون ثمنَ ذلك الاستصغار، معذَّبين في النار!

٤ ـ أَطاعَ الأَتْباع سادتَهم وكُبَراءهم، فماذا كانت النتيجةُ في الدنيا؟ لقد أَضلَّ السادةُ أَتْباعَهم: ﴿فأضلونا السبيلا﴾.

صَرفوهم عن الحق، وزيَّنوا لهم الباطل، وأَبْعدوهم عن السبيل القويم، وقادوهم إلى الطريقِ الأعوج، وضلَّ الأَتْباع بذلك، وفسدَتْ حياتُهم، وخسروا كلَّ شيء.

إنَّ مَنْ يتركُ الحقَّ ويسيرُ مع الباطلِ يَضلُّ السبيل، وبذلك يخسرُ كلَّ شيء، يخسرُ نفسه وشخصيتهُ، وحريته وإرادته

واستقلالَه، ويخسرُ مالَه وقدراتِه ومكاسبه، ويخسرُ أولاده وأهلَه، ويخسرُ واقعَه ومستقبله، ويخسر دنياه وآخرتَه.

إنَّ السادة والكبراء قد ضلّوا أوّلاً في أنفسهم، ثم أضلوا أَتْباعهم لَمّا أَمروهم بطاعتهم، فكان الكُبراء بذلك «ضالّين مضلّين»، وارتكبوا بذلك جرائم متداخلة. قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

٥ ـ وإذا كانَ السادةُ الكبراءُ سبباً في إضلالِ أَتْباعهم، فإنَّ الأَتْباعَ الآن يتجرَّءون عليهم، لكن أَين؟ وسطَ النار، وبعدما فاتَتْهم الفرصة! إنهم الآنَ يطلبونَ من الله أنْ يُضاعفَ العذاب لهم وأنْ يلْعَنهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾.

والملاحظ أنَّ الأَتْباع قد استيقظوا متأخِّرين، وقد تشجَّعوا بعد فوات الأوان، بعد أنْ فقدَ أَسيادُهم وكبراؤهم «هالاتِهم» التي كانتْ فوقَهم في الدنيا، وظهروا الآنَ في جهنم، بوزنهم وحجمهم الحقيقي، ونظرَ لهم الأَتْباعُ الآن فرأَوْهم على صورتهم الحقيقية، بدون تكبيرٍ أو تضخيم.

لم يَعُدِ المتبوعون الآنَ في النار سادة ولا كبراء، ولا يملكون الآن شيئاً، ولذلك تجرَّأَ عليهم أَتْباعهم، فحمَّلوهم مسؤولية إضلالهم، وطالَبوا بمضاعفة العذابِ لهم وإيقاعِ اللعنة بهم.

لقد طالَبوا بمضاعفةِ العذاب لهم، وذلك مرتيْن: مرةً عن ضلالهم بأنفسهم، ومرةً عن إضلالهم لأتْباعهم.

وسوفَ يُضاعِفُ اللهُ العذابَ للسادة الكبراء، دون أنْ يَنْقُصَ من عذاب الأتْباع، كما قال: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥].

كما أنَّ الله سيلعنُهم لعناً كبيراً، بسببِ جرائمهم المتداخلة المتراكمة، وسيتحوَّلون إلى «ملعنة»، تُصَبُّ عليهم اللعنات من الجميع: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦١].

هذا هو المصيرُ الأسودُ لكلٍّ من الأتْباع والمتبوعين، كما تقدمُها لقطاتُ هذه الآيات من سورة الأحزاب، وهذه هي نهايةُ الصلةِ بين الأتْباع والمتبوعين، وهم تُقَلَّبُ وجوههم «وتُحَمَّرُ» على نار جهنم. وهذه هي العاقبةُ الحتميةُ لكلٍّ الذين عصوا الله ورسله واتَّبعوا السادةَ والكبراء، وأَطاعوهم على الباطل والضلال. فمَنْ يرضى بعد هذا البيانِ القرآني أنْ يكونَ من الأتْباع للسادة والكبراء؟؟.

• • •

(١١)

الأتباع والمتبوعون في سورة سبأ

استكبار واستضعاف وندامة وتعذيب

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾

[سبأ: ٣١ ـ ٣٨].

تقدمُ هذه الآياتُ مشهداً حياً للأَتْباع والمتبوعين يوم القيامة، ويسجِّلُ هذا المشهدُ في لقطات مصورة، مناظرَ الحوار بين الأتْباع والمتبوعين وسط جهنم، ومواقفَ التلاومِ والندامةِ هناك.

تبدأُ هذه الآياتُ بتذكيرِ الكفار من الأَتْباعِ والمتبوعين بإصرارهم في الدنيا على الكفر: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ. .﴾.

إن الكفارَ هنا يكفرون بكلِّ كتبِ الله المنزلةِ على رسله، فهم لن يؤمنوا بالقرآن، ولا بما سبقه من كتبٍ سماوية كالتوارة والزبور والإنجيل.

ومعنى ﴿الذي بين يديه﴾: الذي سبق القرآن من كتب الله.

إن الذين اتخذوا هذا القرارَ هم المتبوعون والسادةُ والكبراء، حيث أصرّوا على الكفرِ بالقرآن، وتكذيبِ محمد ﷺ، ثم أَمَروا مَنْ دونهم من الأَتْباع بالالتزام بذلك، ففعلوا! ولا يملكُ الأتْباع إلاّ أنْ ينفِّذوا أوامرَ الأسياد!! وبهذا صدرَ الكفرُ عن الفريقين.

وتطوي الآياتُ بعد ذلك الدنيا ومحطاتها، وتقدمُ المشهد الحيَّ المثيرَ للفريقين بين يدي الله، يوم الحساب.

لقد انتهت الحياةُ الدنيا، وبدأتْ أحداثُ يوم القيامة وبُعثَ الناسُ للحساب، ووُقفوا بين يدي الله.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾: هانحن نرى بخيالنا ـ وما زلنا أحياءً في الدنيا ـ الظالمين موقوفين عند ربهم.

وجوابُ الشرط محذوف، يقدِّره القارىءُ بخياله، ليتفاعلَ مع المشهد، ويشاركه بخياله. وتقديرُ الآية هكذا: ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم لرأيتَ أمراً عجيباً، لرأيت الندامة والحسرة تعلو وجوههم.

والمرادُ بالظالمين هنا الفريقان: الأَتْباعُ والمتبوعون، كما يدلُّ على ذلك سياقُ الآيات، حيث يسجِّلُ الحوارُ التلاومَ بين الأَتْباع الذين استُضْعِفوا، والمتبوعين الذين استكبروا.

والخطاب ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ موجَّهٌ لرسول الله ﷺ، وفيه تسليةٌ وبشرى له عليه الصلاة والسلام. فقد ووجِه بحربٍ شديدة من الظالمين ـ أَتْباعاً ومتبوعين ـ حيث كذَّبوه وحاربوه وكفروا به، وصدّوا الناسَ عن دعوته.

فتدْعوه الآياتُ إلى استحضارِ مشهدِ ذلِّ هؤلاء الظالمين يوم القيامة، وخزيهم وندمهم.

تقول له: هؤلاء الظالمون الآن يحاربونك، فلا تبتئسْ ولا تحزن، تخيَّلْهم في منظرٍ ذليلٍ يوم القيامة، فلو رأيْتَهم وهم موقوفون عند ربهم، وكلُّهم خزيٌ وندم، لرأيتَ أَمراً عجيباً، ولهانوا عليك، وصغُروا في عينيك!

وهذا الخطابُ يشملُ كلَّ عالم وداعية ومصلح، يسيرُ على طريقِ رسول الله ﷺ، ويواجَهُ بحربٍ شرسة من «ظالمي» زمانه، كما واجهَ رسولُ الله ﷺ، حيث تدعوه الآياتُ إلى تخيُّلِ مشهد الظالمين يوم القيامة، واستحضارِ منظرهم وهم موقوفون عند

ربهم، وسماعِ كلامهم وهم يرجعُ بعضُهم إلى بعض القول.

وعندما يتخيلُ العالمُ الداعية ذلك يَصغرُ الظالمون في عينيه، ولا يهزُّه ما يملكون في الدنيا من قوة، ويزدادُ صبراً وثباتاً على الحق، وتصميماً على مواجهةِ الظالمين وتحديهم.

ونرى أن الآية اعتبرت الفريقين ظالمين، سواء كانوا أَتْباعاً أم متبوعين: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

وكونُ المتبوعين ظالمين واضح، لأنهم أصحابُ الأمر والقرار، ومالكو الحكم والسلطان، فظلموا أنفسَهم لما كفروا، وظلموا أَتْباعهم لما أمروهم بالكفر.

لكن كيف اعتبرت الآيةُ الأَتْباع المستضعفين ظالمين؟؟

نعم هم ظالمون، رغم أنهم أَتْباع مستضعفون، يَظهرون بمظهر المعتدى عليهم، العبيدِ الأذلاء، الذين لا يملكون شيئاً، فقد يقولون: كيف تعتبروننا ظالمين، ونحن لا نقدرُ على شيءٍ ولا نملك شيئاً، ولم نتخذْ قراراً؟ إن الظالمين هم سادتنا وكبراؤنا الذين أَمرونا بذلك، وما نحن إلاّ عبيدٌ مأمورون منفِّذون!!

رغم هذا التبريرِ فإنهم ظالمون بنصِّ الآية، إنهم ظالمون لأنفسهم، لأنهم رضوا أنْ يكونوا أَتْباعاً مستضعفين، وعبيداً مأمورين، وكان بإمكانهم أنْ يكونوا رجالاً ذوي شخصيةٍ وقوةٍ ورأيٍ واختيار!

لقد منحهم الله قدراتٍ وطاقات ومواهب، لكنهم لم يُحسنوا

الاستفادةَ منها، وتوظيفَها في حياةِ العزة والكرامة، وبذلك ظلموا أنفسَهم بتعطيلِ ما وهبهم الله وتضييعِه!!!.

يوقَفُ الظالمون من الأتْباع والمتبوعين عند ربهم يوم القيامة، يوقَفون وقفةَ خزيٍ وندمٍ وذلٍّ وهوان، وهناك: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾.

أي: يردُّ كلُّ فريق منهم على الآخر، ويُبطل كلامَه وحجتَه، ويردُّ اتهامَه!

يَجري بين الفريقين هناك تلاومٌ وتشاتُمٌ وتلاعُن، فالعلاقة بينهما متوترة، والاتهامُ بينهما متبادَل، وكلٌّ يريدُ أن يحمِّلَ الآخرَ مسؤوليةَ ما جرى له، وأنْ يبرىء نفسه.

وتفصِّلُ الآياتُ بعد ذلك التلاومَ والاتهامَ بين الفريقين، وتوضِّحُ كيف يرجعُ بعضُهم إلى بعض القول.

يبدأُ الأتْباعُ المستضعفون باتِّهام أسيادهم المستكبرين، وتحميلِهم المسؤولية: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ..﴾.

أنتم أيها السادةُ المتبوعون السببُ في ما جرى لنا، وفي وقوفِنا هذه الوقفةَ هنا، فقد وُجِّهتْ لنا في الدنيا الدعوةُ إلى الإيمان، وأنتم أمرتمونا بعدم الإيمان، فلولا أنتم أَمرتمونا بالكفر، لآمنّا واستقَمنا، وكنَا الآن منعَّمين في الجنة، مع الصالحين أتباع الرسل.

ونقف لحظةً أمام الوصفِ الذي أطلقتْه الآيةُ على كلٍّ من الفريقين:

وَصفت الأتباع بأنهم «الذين استُضْعفوا».

ووصفت المتبوعين بأنهم «الذين استكبروا».

«استُضعِفوا»: فعلٌ ماضٍ مسنَدٌ لغير الفاعل. حيث حُذفَ الفاعل، وصار المفعولُ به ـ الواو ـ نائباً للفاعل. وأصلُ الجملة هكذا: استضعفَ الكبراءُ أَتْباعهم. فاستُضْعِفت الأَتْباعُ لهم.

أما «استكبروا» فهو: فعلٌ ماضٍ مسنَدٌ للفاعل، والمرادُ بالفاعل السادةُ الكبراء المتبوعون.

ونلاحظُ أنَّ الفعليْن: استُضعِفوا واستكبروا، مبدوءان بحروفِ الطلبِ الثلاثة: الهمزة والسين والتاء. لأن هذه الحروفَ الثلاثة تدلُّ على طلب الشيء، والاستعدادِ له.

تقول: استكبرَ فلان. أي: طلبَ التكبر، واستعدَّ أن يكون متكبراً.

وتقول: استوزرَ فلان. أي: طلبَ الوزارة، واستعدَّ لأنْ يكونَ وزيراً.

والفعلان: استُضْعِفوا واستكبروا، يُخبران عن انحرافيْن وشذوذيْن نفسيَّيْن، كلٌّ منهما مرضٌ خطير، يَقضي على صاحبه، وكلٌّ منهما سببُ ما وقعَ بصاحبه من مصائب.

إنَّ «الاستضعاف» شذوذٌ وانحرافٌ ومرض نفسي، يجعلُ

صاحبَه ضعيفاً مستضْعَفاً، وذليلاً مُهاناً، يقضي على رجولتِه وشخصيته، ويُريه نفسَه ضعيفاً نكرةً ضائعاً، وعبداً تابعاً جباناً، فيستسلم لأسياده.

وإن «الاستكبار» شذوذٌ وانحرافٌ ومرض نفسي، يُعتبر مقابلاً للاستضعاف، ويجعلُ صاحبه متكبّراً مستكبراً، ويُريه نفسه أكبر من حجمها بكثير، ويُريه الآخرين أصغرَ من حجمهم بكثير، ويستمرُّ هذا المريضُ المتكبرُ في الانتفاشِ والتضخم النفسي، حتى يَرى نفسه ندّاً لله ربِّ العالمين، فيدَّعي الألوهية، ويُخضعُ الأتْباعَ له من دون الله.

مرضُ الاستضعاف يُصيبُ صاحبه بعمى الألوان، ويُريه نفسَه صغيراً ضعيفاً حقيراً. ومرضُ الاستكبار يُصيبُ صاحبهَ بعمى الألوان، ويُريه نفسه كبيراً ضخماً، وربّاً آمراً.

الاستضعافُ هو السببُ في جعْل صاحِبه تابعاً، والاستكبارُ هو السببُ في جعْل صاحِبه متبوعاً.

إذن الأتْباع الأذلاءُ العبيد، ما رضوا بهذا إلاّ لأنهم استُضْعفوا!!

والمتبوعون الآمِرون، ما وصلوا لهذا إلاّ لأنهم استكبروا!!

والاستقامةُ والاتزان، أنْ يُري الله الإنسان نفسَه على حقيقتها وحجمها الصحيح، بدونِ تصغيرٍ يوصلُ للاستضعاف، ولا تكبيرٍ يقودُ للاستكبار!!!.

يتهمُ المستضعفون المستكبرين بأنهم السببُ في ما جرى

لهم، ويقولون لهم: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾.

ولا يقبلُ المتبوعون المستكبرون الاتهام. فيرجعون القول للأَتْباع، ويُحمِّلوهم مسؤوليةَ ما جرى لهم، ويقولون لهم: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ!﴾

إن المستكبرين المتبوعين يتبرءون من التبعة، ويتخلَّون عن الأَتْباع، وينكرون أن يكونوا قد أضلّوهم وصدّوهم عن الهدى.

يقولونَ لهم: لقد جاءكم الهدى من الله على أَيدي الرسلِ والدعاة، ودَعَوكم إليه، فلماذا لم تستجيبوا لهم؟ ولماذا لم تلبّوا دعوتَهم؟ ولماذا لم تهتدوا بهداهم؟

أنحنُ صدّدْناكم عن ذلك الهدى؟ وصرَفْناكم عنه؟

أنتم الذين رفضتم الهدى، لأنكم لا تريدونه، ولو كنتم تريدونه لاهتديتم به.

وإذا نهيناكم عن الاستجابةِ للهدى، ودعَوْناكم إلى رفضه، فلماذا تستجيبون لنا، وتلبّون دعوتنا؟ لماذا لم تخالفونا وتتَّبعوا الهدى؟ لقد نَهيْنا المؤمنين الذين كانوا معكم عن الإيمانِ والهدى، فلم يستمعوا لنا، وخالَفونا، واتَّبعوا الهدى، وهم الآن فائزون في الجنة! فلماذا لم تكونوا مثلَهم؟ ولماذا لم تفعلوا فعْلَهم؟

أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم؟ كّلا. لم نصدَّكم عنه، بل أنتم تركتموه لأنكم مجرمون، تُريدون الضلالَ والكفر، ولا تريدون الإيمانَ والهدى!

فما وقعَ بكم الآن من العذاب إنما هو بسببِ جريمتِكم وكفركم ورفضكم للهدى، فتحمَّلوا تبعةَ ما جرى لكم ومسؤوليته، ولا تُلقوها على غيركم!!.

إنَّ المستكبرين المتبوعين يُشركون أَتْباعَهم المستضعَفين معهم، في المسؤولية والتبعة، بينما كانوا في الدنيا، لا يَعتبرون لهم وجوداً ولا كياناً ولا أهمية، ولا يعتدّون لهم برأيٍ أو إرادةٍ أو اختيار!

وأمامَ هذا الردِّ من المستكبرين، يتذكَّرُ المستضعفون الأَتْباعُ ما كانوا يفعلونَه بهم في الدنيا، وما كانوا يمكرونه بهم، ويأمرونهم به، فيُذكِّرونهم بذلك كله:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا . . ﴾.

واللافتُ للنظر أنَّ الأَتْباعِ الآن - في جهنم - يملكون الجرأةَ للردِّ على أسيادهم، والقدرةَ على رفضِ كلامهم ونقضه، وبيانِ تزييفهم ومغالطتهم! ولو كانوا في الدنيا لما فعلوا ذلك!!

يقولُ لهم أسيادُهم المتبوعون: أنحنُ صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم؟ بل كنتم مجرمين.

ولو كانوا في الدنيا لصَمَتوا وأُخرسوا، ولما تكلموا بكلمةٍ ردّاً على أسيادهم، ولما قدروا على تكذيبهم، لأنهم أَتْباعٌ أذلاءُ عبيد لهم، يخافونهم ويخشون بطشهم.

أما الآن ـ في جهنم ـ فهم جريئون فصحاء، عندهم كلامٌ يردّون به على الأسياد، ولهم صوتٌ يرتفعُ في الاعتراض على المستكبرين!

لماذا؟ لأنَّ المستكبرينَ المتبوعين مجرَّدون من الهالةِ التي كانت حولَهم في الدنيا: السلطانِ والقوةِ والرهبة والبطش، والقدرةِ على الضر والنفع، والعطاءِ والمنع، بل والإحياءِ والإماتة. هذه الهالةُ التي جعلت الأَتْباعَ يذلّون لهم، ويُستضعفون أمامهم!

أما الآن ـ في جهنم ـ فماذا يملكُ المتبوعون المستكبرون من هذه الهالات؟ لا شيء! إنهم مثلُ أَتْباعهم في الضعفِ والعجز والفقر والحاجة. فلماذا لا يردّون عليهم؟ ولماذا لا يواجهونهم؟ ولم يعدْ هناك ما يهابونَهم من أجله!!

آلآن يتجرأُ المستَضْعفون وقد فاتَ الأوان؟

لماذا لم يفعلوا كما فعلَ المؤمنون الصالحون، الذين واجَهوا المستكبرين الظالمين في الدنيا، بجرأةٍ وشجاعة، لم يرهبوهم، ولم تَخْدعهم هالاتُهم؟ وبذلك كانوا أعزاء كراماً، وهم الآن منعَّمون في الجنة!!

قال الذين استُضعفوا لأسيادهم المستكبرين: لا تتخلّوا عن مسؤوليةِ إضلالِنا وصدِّنا عن الهدى. صحيحٌ أن الهدى قد جاءنا. وقد دعانا إليه الرسلُ وأتباعُهم، ولكنكم صددْتُمونا عنه!!

كيف؟ ﴿ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾.

نعم. صدَدْتُمونا عن الهدى، عندما كنتم تأمروننا أن نكفرَ بالله، ونجعلَ له أنداداً.

إنها أوامرُ صادرةٌ منكم إلينا، أوامرُ بعدم الإيمانِ بالله، وعدم الاستجابةِ للهدى، أوامرُ جازمة قاطعة لنا بأنْ نكفر بالله، وأن نجعلَ له أنداداً وشركاء وآلهة، نعبدُهم من دونه.

هذه الأوامرُ الصادرة منكم إلينا، ما كنا نقدرُ على مخالفتها، لأننا نَرهبكم ونخشاكم ونخافكم، ولو حاولنا مخالفتها لواجهتُمونا بالبطش والأذى.

لقد كنتم أيها المتبوعون تمكرونَ بنا مكراً دائماً، وتتآمرون علينا تآمراً مستمراً، شملَ كلَّ الليل والنهار، كنتم تُمضون الليل والنهار، وأنتم تُفكرون وتدرسون وتُخطّطون وتُبرمجون، وتَمكرون وتَتآمرون، وتَضعون الخططَ والبرامج، لمحاربة الهدى، ومواجهةِ المؤمنين، واستمرارِ إخضاعِنا لكم، وسيرِنا في ركابكم.

كم مكرتُم بنا! وكم تآمرتُم علينا! وكم طبقتُم فينا خططكم وبرامجكم! وكم سيطرتُم علينا بأساليبكم وقدراتكم! وكم حرصتُم على إبقائنا أتْباعاً أذلاء مستضعفين، وعبيداً ضائعين!

والآن ـ في جهنم ـ تتبرءون من كلٍّ هذا، وتقولون لنا: أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم؟ بل كنتم مجرمين!.

لا. إنكم أنتم المجرمون في حقِّنا، وأنتم الذين صددتمونا عن الهدى، وأنتم السببُ في كفرنا، ولولا أنتم لكنا مؤمنين!.

يالها من حجةٍ عند هؤلاء الأتْباع! وياله من كشفٍ لوسائلِ المستكبرين الطواغيت وأساليبهم ومكائدهم ومؤامراتهم! ويالها من جرأة!

لكن: لقد جاءتْ متأخرة! واستيقظوا متأخرين!!.

وبهذا ينتهي الحوارُ بين الأتْباع والمتبوعين، كما يقدِّمه هذا المشهد، المعروضُ في هذه الآيات.

يقولُ الأتْباع للمتبوعين: لولا أنتم لكنا مؤمنين!.

ويكذِّبهم المتبوعون ويَنقضون كلامهم بقولهم: بل كنتم مجرمين.

ويردُّ عليهم الأتْباع بتكذيبٍ آخر: بل مكرُ الليلِ والنهار، إذ تأمروننا أن نكفرَ بالله، ونجعلَ له أنداداً.

بهذا يكونُ قد كشف كلُّ فريقٍ ما عند الآخر، وبيَّنَ لنا سببَ انحرافه، وأطلَعَنا على حقيقة الصلة بينهما، ولا حاجة لإضافةِ جديد.

اللقطةُ التاليةُ للفريقيْن مجتمعيْن، إنها أَنْ «يُسرّوا الندامة» وهم ذاهبون للتعذيب: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

الفريقان نادمان. المتبوعونَ نادمون لأنهم ضلّوا وأَضلوا

الآخرين. والأتْباعُ نادمون لأنهم اتَّبعوا المستكبرين.

الآن ظهرَ للجميع خسارتُهم، وحكْمُ الله قد صدرَ عليهم بالخلود في النار، وهاهم يرون العذاب، وهاهم ذاهبون للعذاب.

لقد تملكتْهم الندامة، وسيطرت عليهم، وظلَّلت أشخاصَهم، سواء كانوا أَتْباعاً أم متبوعين.

حاوَل الأتْباع أنْ يُحملوا المسؤولية لمتبوعيهم لينجوا هم، فلم يستطيعوا، ولذلك ندموا.

ومع أنَّ المتبوعين أشركوا أَتْباعهم معهم في المسؤولية والتبعة، إلا أنهم معذَّبون مثلهم، ولذلك ندموا.

إنَّ اللقطةَ المسجلة في قوله: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ لا تُرينا إياهم نادمين، أي: لا تُرينا ملامح وجوهِهم وقسماتهم وهم نادمون، ولكنها ترينا إياهم وقد ﴿أَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾.

أي: تُرينا إياهم عندما أخفوا الندامة داخلَ كيانهم، لقد دخلت الندامةُ داخلَهم، وتغلغلتْ في نفوسهم، وأُشربتْها مشاعرُهم وأعصابُهم، وتحولتْ هذه الندامةُ إلى حسرةٍ وإحباط، وكبت وكَمَد، وهَمٍّ نفسيٍّ ثقيل.

لماذا أسرّوا الندامة؟ وتحوَّلتْ إلى كمد وإحباط؟

لأنهم رأوا العذاب، ولأنها لم تنفعْهم أيّ محاولة للتهربِ أو النجاة.

وذَهبتْ بهم الزبانيةُ إلى العذاب. سواء كانوا أَتْباعاً أم

متبوعين، وسِيقوا إلى العذاب في صورةٍ زادتْ من كمدِهم وحسرتِهم وندامتهم، لقد جَعلت الزبانيةُ الأغلالَ والأقفالَ والقيودَ والسلاسلَ في أعناقهم وأيديهم وأرجلهم.

المستكبرون المتبوعون يُساقون إلى العذابِ في جهنم، والأغلالُ في أعناقهم، والأتْباع المستضْعَفون يُساقون إلى العذاب، والأغلالُ في أعناقهم. وهذا بسبب كفرهم جميعاً!

وهذه هي النهايةُ المخزيةُ للاستضعافِ المرذول أمامَ الاستكبارِ المقيت!!!.

• • •

(١٢)

الأتباع والمتبعون في سورة صَ

نتائج اتباع الهوى والشيطان:

حذَّرتْ آياتُ سورةِ ص من الاتِّباع الباطل، ونَهتْ عن اتِّباعِ الهوى وبينت نتائج اتِّباعِ الشيطان.

ووردَ الكلامُ عن الاتِّباع صريحاً في موضعيْن:

الأول: نهيُ داود عليه السلام عن اتِّباع الهوى.

الثاني: بيانُ عاقبة من اتَّبعوا الشيطان.

ونقفُ مع كلِّ موضع وقفةً سريعة.

نهي داود عن اتباع الهوى:

قال الله تعالى: ﴿ ۞وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَـٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾

﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝٢٥ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾

[ص: ٢١ ـ ٢٦].

تُشيرُ هذه الآياتُ إلى قصةِ النبيّ داود عليه السلام، مع «الخصميْن» اللَّذيْن احتكما إليه، فتعجَّلَ بالحكمِ لأحدهما على الآخر، فنهى اللهُ دوادَ عن ذلك، وعرفَ داودُ الإشارة، واستغفرَ ربَّه.

وأشيرُ إلى معنى هذه الآيات بمنتهى الإيجاز، لِما رافقَ معناها من غبشٍ وخلطٍ عند كثيرينَ من المسلمين.

كان داود عليه السلام نبياً ملِكاً في بني إسرائيل، وكان يجعلُ نهارَه في تصريفِ أُمور الرعية، ويجعلُ ليله لله يناجيه فيه ويَدعوه ويصلي له، وكان يضعُ الحرسَ على منزله في الليل، يمنعونَ الناس من الوصول إليه، ليتفرغَ للصلاة والقيام والذكر، وفي النهار مجالٌ لحلِّ مشكلات الناس!

وأَرادَ الله أنْ يبيّن لداود عليه السلام أن عمله هذا خلافُ الأوْلى، وبما أنه خليفة ملك، فلا بدَّ أنْ يستقبل الناس ويحلَّ مشكلاتهم، في أيِّ وقت، وأنْ لا يغلقَ بيته أمامهم ليلاً.

فبينما كان داودُ ليلاً في محرابه، يصلّي ويناجي ربه، أَرسلَ الله له اثنين من الملائكة، في صورةِ رجلين، فلم يدخلا من أَبواب القصر المغلقة، وإنما دَخلا من السور: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾،

وفوجىءَ داودُ بالرجليْن فوقَ رأسه وهو في محرابه، ففزعَ منهما، وصار يفكرُ كيف دخلا، ومن أين، فقد أمرَ بإغلاق الأبواب، ومنعَ الحراسُ الناسَ من الدخول، فمن أين دخلا؟ وماذا يريدان؟ وما هويتُهما؟ كل هذا أوجد عنده الخوفَ والفزع.

ولكنّهما سرعان ما طمأناه، وأزالا خوفه وفزعه، وأخبراه أنهما خصْمان مختلفان، جاءا إليه ليحكم بينهما.

القضيةُ بينهما أنهما شريكان، أحدُهما له تسعٌ وتسعون نعجة، والثاني له نعجةٌ واحدة، فطمعَ الأول في نعجةِ أخيه، وأَرادَ ضمَّها إلى نعاجه، وألحَّ عليه، وأراد أخذها رغماً عنه.

وهذا في ظاهره اعتداءٌ وظلم صارخ، ولذلك سارعَ داود بالحكم فقال: لقد ظلمَك أخوك عندما أراد ضمَّ نعجتك إلى نعاجه.

وبعدما أَصدرَ داودُ حكْمَه عرف حقيقة الأمر، وأَنهما ليسا رجلين، وليس بينهما قضيةٌ ولا خلافٌ حقيقي، وليس هناك شركةٌ ولا نعاج، كلُّ ما في الأمر هو لفتُ نظرِ داود إلى أَهميةِ فتح أَبوابِ قصره أَمامَ المختلفين في أيِّ وقت.

عرفَ أخيراً أنهما ملكان من الملائكة، وأَنهما سأَلاه عن قضيةٍ افتراضية، ليست حقيقية، ليُرشداه إلى أهمية الحكم بين المختلفين في أيِّ وقت.

كما عرفَ داودُ أَنه تعجَّلَ في الحكم لأحدهما على الآخر، بمجرد سماع كلامه، وقبلَ أنْ يسمعَ حجةَ الطرف الآخر، فقدْ

يكونُ الحقُّ له، ومعلومٌ في القضاءِ أنَّ القاضي لا يقضي في المسألة إلا بعد سماع حجة الطرفين، وإذا جاء القاضيَ أحدُ الخصمين وعينه «مقلوعة»، فلا يقضي له إلاّ بعد رؤية خصْمه، فقد تكونُ عيناه الاثنتان مقلوعتين!!.

بعدما تلقّى داودُ الإشارة، وعرف حقيقة الأمرِ كلِّه، استغفرَ ربه، وخرَّ راكعاً وأناب إليه: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾.

في هذا الجوِّ وهذا السياق، يأتي توجيهُ الله لداود عليه السلام إلى الحكم بين الناسِ بالحق والعدل، لأنه خليفةٌ ملك، وإلى عدم اتباع الهوى، لئلا يضلَّ عن سبيل الله: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ..﴾.

ونرى في هذا التوجيه الرباني التقابل بين خطّيْن متوازييْن، لا يمكنُ أنْ يلتقيا، ولا أَنْ يُجمع بينهما، هما: إمّا اتِّباعُ الحق والحكمُ به بين الناس، وإمّا اتِّباعُ الهوى والحكمُ به بين الناس.

اتِّباعُ الحق والحكمُ به هو اهتداءٌ إلى سبيل الله، والتزامٌ بها، وثباتٌ عليها.

واتِّباعُ الهوى والحكمُ به، هو انحرافٌ وابتعادٌ عن سبيل الله، وهو ضلالٌ وظلمٌ وخسارة، والضّالون عن سبيل الله لهم عذابٌ شديد عند الله.

وقد نصَّت الآيةُ بصراحة على نتيجةِ اتباع الهوى، على

اعتبارها نتيجةً حتميةً لكلٍّ من اتبعَ الهوى، وهي الضلالُ والانحراف في الدنيا، والعذابُ الشديد يوم القيامة.

ويمكننا تقريرُ هذه القاعدة اليقينية: كلُّ من اتَّبع الهوى وحكمَ به فهو ضالٌّ عن سبيل الله في الدنيا، معذَّب هالكٌ خاسرٌ في الآخرة.

نتيجة اتباع الشيطان:

اتِّباعُ الشيطان الرجيم يقودُ إلى الخلود في نار جهنم. قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٧١ ـ ٨٥].

بعد ما فعَلَ إبليسُ عليه اللعنة ما فعلَ، بالنسبةِ لآدم عليه السلام، تمردَ واستكبرَ وكفر، وتعهَّدَ أمامَ الله بأنْ يُغويَ ويُضلَّ كلَّ أبناءِ آدم وذريتهِ من الكافرين الذين يستجيبون له، ويتَّبعونه،

واعترفَ أَنه لا قدرةَ ولا سلطانَ له على عبادِ الله الصالحين المخلصين.

وبيَّنَ اللهُ أن اتِّباعَ الشيطان يقودُ إلى الضلال والخسارة في الدنيا، ويوصِلُ إلى جهنم في الآخرة، وقررَ أنَّ أَتْباعَ الشيطان الكافرين مخلَّدون مع شيطانِهم في جهنم: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ۝٨٤ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

هذه هي نتيجةُ اتِّباعِ الشيطان، وهذا هو المصيرُ المحتوم لأَتْباعِ الشيطان، المستجيبين له، المنفِّذين لوساوسه.

وفي سياقِ إشارتنا إلى النهايةِ السوداء لأَتْباع الشيطان، نَدعو إلى تذكُّر هذه الآيات، التي تتحدثُ عن ذلك:

قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ۝١٧ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٦ ـ ١٨].

شَتّان بينَ اتِّباعِ الحق وبين اتِّباعِ الهوى، وشتّان بين نتيجةِ اتِّباع الحق ونتيجةِ اتِّباع الهوى، وشَتّان بين نهايةِ أَتْباع الرسل ونهاية أَتْباعِ الشيطان!!!.

الأتباع والمتبوعون في سورة ص: سباب وتشاتم وتخاصم:

قال تعالى: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ۝٥٥ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝٥٦ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۝٥٧ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ۝٥٨ هَٰذَا فَوْجٌ

مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ ۝ قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ۝ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ ۝ وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ ۝ أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ۝ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٥٥ ـ ٦٤].

تَعرضُ هذه الآيات لبعضِ ما يكونُ بين الأتْباع والمتبوعين في جهنم، من سِبابٍ وتَشاتُم وتَخاصُم.

وقد عرضَتْ آياتٌ قبلَها بعضَ صورِ نعيم المتقين في الجنة: ﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ۝ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ۝ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ۝ ۞وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ ۝ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ۝ إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ. .﴾

[ص: ٤٩ ـ ٥٤].

ونقدمُ المعنى الإجمالي لهذه الآيات التي تتحدث عن الأتباع والمتبوعين، لمعرفة حقيقة المشهد بينهما.

﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ۝ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾: جعلَ الله للطاغين الكافرين شَرَّ مرجعٍ ومصير، لأنَّ مرجعَهم إلى جهنم، ومصيرَهم إليها، حيثُ يَدخلونها، ويَصْلون فيها، ويَحترقون بنارها، وبئستْ جهنَم مِهاداً واستقراراً لهم.

﴿هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ۝ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ﴾: هذا هو العذابُ الذي يُعذبهم الله به في جهنم، فلْيذوقوه ولْيُعذبوا به.

هذا العذابُ الذي يذوقونه، منه ما هو «حميم»، وهو الماءُ

الحارُّ الذي بلغتْ حرارتُه أَقصى درجاتها، ومنه ما هو «غَسّاق»، وهو ما يَسيلُ من حروقهم وجلودهم من القيح والصديد.

قالَ قتادة: الغساق هو ما «يغسقُ» أي: يسيلُ من القيحِ والصديد من جلودِ أَهلِ النار ولحومهم، وفُروجِ الزُّناة.

ولهم عذابٌ آخر غيرُ الحميم والغَسّاق، وهو من شكْله، أي: مثْلُ الحميمِ والغساق، في كونه عذاباً ثالثاً يُضاف إِليهما. وهذه الأنواعُ الثلاثة هي «أَزواج» وأَصنافٌ متتابعة، يعذِّب الله الكافرين الطاغين بها.

والكافرون الطاغون المعذَّبون بهذه الأصنافِ الثلاثةِ في جهنم ـ الحميمِ والغساق والآخرِ من شكله ـ فريقان، فريقُ المتبوعين من القادة والرؤساء، وفريقُ أَتْباعهم الذين تابَعوهم في الدنيا.

وتُدخِلُ الملائكةُ الفريقيْن إلى جهنم على دفعتيْن.

الدفعةُ الأُولى: هم المتبوعون من القادةِ والسادة.

والدفعة الثانية: هم الأَتْباعُ من الرعية.

تَأخذُ مجموعةٌ من الملائكة المتبوعين أَوّلاً، وتَذهبُ بهم إِلى جهنم، ثم تأْخذُ مجموعةٌ أُخرى الأَتْباع بعدهم.

تُخاطبُ الملائكةُ القادةَ المتبوعين، مشيرةً إلى الأَتْباعِ الذين بعدهم: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾: أُنظروا خلْفَكم، فهاهم أَتْباعكم وراءكم، وهم مقتحمون جهنم معَكم، وسيدخلونها معكم.

ويَنظرُ المتبوعون إِلى أَتْباعهم، ثم يخاطِبون الملائكةَ الذين

يسوقونهم: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾: وهذه شتيمةٌ يوجِّهها المتبوعون لرعيتهم. لا مَرحباً بهم ولا أَهلاً ولا سهلاً، فهاهم ذاهبون إلى النار ليدخلوها ويَصْلوها، ومَنْ يَصْلى النار فهل يجدُ فيها مرحباً أو أهلاً أو نسهلاً أو راحة؟؟

ومعنى «مرحباً» الرحبُ والسعة، تقول العرب: مَرْحباً وأَهلاً وسهلاً. أي: أَتيتَ رحبةً وسَعة.

وإنْ شئتَ الذمَّ والشتمَ تقول: لا مرحباً بك. أي: لا رحبتَ ولا سهلتَ ولا توسعَتْ عليك الأرض.

وأصبحتْ كلمةُ «مرحباً» في التعارف تحيةً طيبة مبشِّرة، دالةً على حسنِ الاستقبال والتكريم. وأصبحْت كلمةُ «لا مَرحباً» على العكس، كلمةَ ذمٍّ وشتم وسبّ، تدلُّ على سوء الاستقبال، وعدمِ الرغبة في المقابلة.

قالَ ابنُ عباس في مَنْ قالوا: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾: إنَّ القادةَ إذا دخلوا جهنم، ثم دخلَ بعدهم الأتْباع، قالت الخزنةُ للكفار: هؤلاء الأتْباع فوجٌ مقتحم معكم النار، وجماعةٌ سيدخلونَها كما أنتم دخلْتُموها.

فيقول القادة: لا مَرْحباً بهؤلاء الأتْباع، لأنهم سيدخلون النار ويَصْلونها مثلَنا.

ويَسمعُ الأتْباعُ شتمَ قادتِهم لهم، فلا يسكُتون لهم ـ كما كانوا يسكتون لهم في الدنيا ـ وإنما يُجيبونهم بصوتٍ مرتفع: ﴿قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾.

أَنتم أيها القادةُ المتبوعون لا مرحباً بكم ولا أَهلاً ولا سهلاً. وهل تشمَتون بنا في قولكم عَنّا ﴿إِنَّهُمْ صَالُواْ النَّارِ﴾؟

أَنتم أَيها القادةُ السببُ في ما حلَّ بنا من العذاب، لأنكم أَنتم الذين قدَّمْتم لنا الكفر في الدنيا، ودعوتُمونا إِلى اعتناقه، وأَمَرْتمونا باتّباعكم ومتابعتِكم عليه، فأنتم بدأْتُم بالكفر قَبْلنا، ثم شرعْتُموه وسننتُموه لنا في قوانينكم وتشريعاتكم، ثم أَمرتمونا باعتناقِه، ونحن استجبنا لكم وكفَرْنا، وها هي النتيجةُ أَننا نحن وأنتم في جهنم.

وبئستْ جهنمُ قراراً ومصيراً ومرجعاً ومآباً لنا ولكم.

ثم يتوجَّهُ الأَتْباعُ إِلى الله، ويَدْعونه قائلين: ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي ٱلنَّـارِ﴾. وهم يَقصدون في هذا الدعاء قادَتَهم ومتبوعيهم، الذين أَوصلوهم إلى جهنم، ويَطْلبون من الله أنْ يضاعفَ العذابَ على أَسيادهم وكبرائِهم، لأنهم السببُ في كفرهم، حيث قدَّموا لهم الكفر، ودعوهم إِلى اعتناقه.

وهذا الموقفُ والدعاءُ من الأَتْباع الأذلاء، كموقِفِهم ودعائهم الذي سَجَّلَه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ۝٦٦ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ۝٦٧ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٦ ـ ٦٨].

وقد وقفنا مع هذا المشهد قبل قليل ولله الحمد.

وهذا الموقفُ من الأَتْباع لا يُعفيهم من المسؤولية، وهذا

الدعاءُ على سادتِهم وقادتِهم لا يَدفعُ عنهم العذاب. ولهذا قال تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

وبعدما يَسمعُ القادةُ المتبوعون كلامَ أَتْباعهم، ودعاءَهم عليهم، وبعدما يستقرّون في النار والعذاب، يَنظرون فيما حولَهم، ويتعرَّفون على «زملائهم» المشاركين لهم في العذاب، ويَعرفونهم بأَعيانهم وأَسمائِهم، سواء كانوا من القادةِ والمسؤولين في الدنيا، أو كانوا من الأَتْباع المستضعفين.

ويفتشُ هؤلاء القادة المتبوعون عن آخرين، فلا يجدونَهم في النار، عندها يعلنون استغرابَهم قائلين: ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ۝٦٢ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾

إنهم يعنونَ بكلامهم فقراءَ المسلمين الصالحين وضعفاءَهُم، فقد كان هؤلاء الملأُ المستكبرون يَسْخَرون من ضعفاء المسلمين في الدنيا، وكانوا يعتبرونَهم من الأشرارِ الضالّين المنحرفين.

لقد اختارَ المؤمنون الإيمانَ في الدنيا، والتزموا به وثَبتوا عليه، وهذا الأمرُ لم يُعجب الملأَ المستكبرين والطغاةَ المستبدين، فآذوا هؤلاء المؤمنين وعذَّبوهم، ودَعوهم إلى أن يتحوَّلوا عن الإيمان، ويَسيروا مع جمهور الأَتْباع المستضعفين، الذين ساروا في ركابِ الملأ السادة ولم يخالفوهم.

ولكن هؤلاء المؤمنين ثَبتوا على الحق، ولم يَستجيبوا لطلبِ الطغاة المتبوعين، فعذَّبهم الطغاة، واعتبروهم أَشراراً بُغاة، متطرِّفين متزمِّتين، متعصِّبين إرهابيين، ضالّين مضلّين، مفسدين مخرّبين، وسَخروا منهم في الدنيا، وشنّوا عليهم حرباً إعلاميةً دعائيةً ضخمة، نسبوا لهم فيها ما شاءوا من الاتهامات، وأَثاروا حولهم ما شاءوا من الشبهات.

ما زادتْ حربُ الطغاة هؤلاء الثابتين إلا التزاماً وثباتاً... وانتهت الحياة الدنيا.

وسيقَ الطغاةُ المتبوعون مع أَتْباعهم إلى جهنم، ولما استقرَّ الطغاةُ في النار، صاروا يبحثونَ عن أُولئك المؤمنين الثابتين وسطَ العذاب، فلم يجدوهم، لأنَّ اللهَ أَكرمهم جزاءَ إيمانِهم وصدقِهم وثباتهم وجهادهم، فأَدخلهم الجنة.

عندها صاحَ القادةُ الكبراء مستغربين: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ۝ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ؟﴾.

ويَحتاج قولُه: ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ﴾ إلى بعض التوضيح والتأويل.

الهمزةُ في قولهم: «أَتَّخَذْناهم» ـ على قراءةِ عاصم ونافع وابن كثير وابن عامر ـ همزةُ الاستفهام الداخلةُ على الفعل الماضي، والأصل: أَإتَّخذناهم، لكنَّ همزةَ الفعل همزةَ وصل، فأُدغمت مع همزة الاستفهام، فصارت: أَتَّخَذْناهم سخرياً.

لكن ما معنى الاستفهام؟ هل يستفهمونَ عن اتِّخاذهم سخرياً

في الدنيا؟ إنهم اتخذوهم سخرياً حقيقةً في الدنيا، وسخروا منهم حقيقةً في الدنيا، وهم يعلمون ذلك ويوقنون به، فلماذا هذا الاستفهام؟

الراجحُ أنَّ الاستفهامَ هنا لفظي، ولا يُرادُ به حقيقة الاستفهام، فجيءَ بالاستفهام، ليناسِبَ ويُعادلَ «أَمْ» فيما بعد، فلا يصحُّ التعبيرُ بحرفِ «أَمْ» إلا إذا سُبق باستفهام، ولهذا جيءَ بالاستفهام هنا: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ؟﴾.

وعلى هذا يكونُ قولُهم ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ إقرارٌ واعترافٌ بأنهم اتخذوا هؤلاء الصالحين سخرياً في الدنيا، ويكون الاستفهامُ في الجملة تقريرياً.

ويمكنُ أن يكونَ هذا الاستفهامُ منهم من بابِ الإنكار والتوبيخ، فلما رَأوا ما حلَّ بهم من العذاب نتيجةَ كفرهم وسخريتهم بالمؤمنين في الدنيا، لاموا أنفسهم ووبَّخوها، لأنَّهم سخروا من أولئك المؤمنين.[1]

إنَّ الطغاةَ يتعجبون من عدم دخولِ المؤمنين المستضعفين معهم في النار: ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ۝٦٢ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ؟﴾.

أَينَ هؤلاء الذين أَخطأْنا في اتخاذهم سخرياً في الدنيا؟ أين

---

(١) انظر توجيه قراءة حفص عن عاصم بالاستفهام في «حجة القراءات» لابن زنجلة: ٦١٦ ـ ٦١٨.

هم الآن؟ لماذا لا نَراهم مَعنا في جهنم؟ هل هم معنا وزاغَتْ عنهم أَبصارنا؟ أم غابوا عنا وذهبوا إلى مكانٍ آخر غير جهنم؟

وما درى هؤلاء المتبوعون أنَّ الرجالَ الصالحين لم يشاركوهم مصيرَهم الأسود في جهنم، كما شاركهم أَتْباعُهم، وأنهم هناك في جنات النعيم، معزَّزون مكرَّمون منعَّمون عند رب العالمين!!.

وقد عقَّبتْ آياتُ تصوير هذا المشهد بين الأتباع المتبوعين في النار على ما جرى بينهم بقولها: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾.

أي: هذا الذي يَجري بين الأَتْباع والمتبوعين في جهنم حق، يقعُ هناك كما أَخبرَ اللهُ عنه، وهذا التخاصُم والتشاتمُ والسبابُ بينهم كائنٌ كما أخبرَ الله.

فيا أَيها الأَتْباع: هل يسرُّكم أنْ تكونَ هذه نهايتكم السوداء في جهنم؟ وإذا كان هذا لا يسرُّكم فلماذا تَبْقَوْنَ أَتْباعاً للقادة الطغاة في الدنيا؟

ويا أيها السادةُ المتبوعون هل يُرضيكم هذا المصيرُ في الآخرة؟ فلماذا تبقون مصرين على كفركم وعنادكم؟

ولهذا يأَتي هذا التوجيهُ في أعقابِ ذلك المشهد، في موضعِه وسياقِه المناسب: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ ﴿٦٦﴾ ﴾ [ص: ٦٥ ـ ٦٦].

● ● ●

(١٣)

الأتبـاع والمتبوعون في سورة غافر

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ [غافر: ٤٧ ـ ٥٢].

تَعرضُ هذه الآياتُ بعضاً مما يَجري بين الأَتْباع والمتبوعين في النار، من الحِجاجِ والخِصام والجدال، وتبادلِ الاتّهامات.

الأَتْباعُ في هذه الآيات هم الضعفاء، والمتبوعون هم الذين استكبروا.

ونُلاحظُ أنَّ هذه الآياتِ جاءتْ بعد آياتٍ سابقةٍ في سياق السورة، تحدثَتْ تلكَ الآياتُ عن قصة «مؤمن آل فرعون» في

دفاعِه عن نبيِّ الله موسى عليه الصلاة والسلام، ووقوفِه أَمامَ فرعون وملئه.

ففي الآياتِ السابقة يطلبُ فرعونُ من قومه أنْ يخلُّوا بينَه وبين موسى، وأنْ يتركوه يَقتل موسى، لأنه مفسدٌ في الأرض، فيقفُ أمامَه رجلٌ مؤمن من آله، كان يكتمُ إيمانَه من قبل، ويفنِّدُ كلامَه، ويخاطبُ قومَه، مدافِعاً عن موسى عليه السلام، وداعياً القومَ إلى عدم الاستجابةِ لفرعون، وإلى الدخولِ في دعوةِ الحق.

ويفاجَأُ فرعونُ بموقفِ الرجل وإيمانه، فيخاطبُ قومَه بعلوٍّ وتجبُّرٍ واستكبار، قائلاً لهم: ﴿ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

ويردُّ الرجلُ المؤمنُ على استكبارِ فرعون بتذكيرِ القوم بما جرى للطواغيت الكفارِ السابقين، من قومِ نوحٍ وعاد وثمود والذين من بعدهم، كما يُذكِّرهم بما ينتظرُهم من العذابِ يوم القيامة، إذا تابعوا فرعون.

ويختمُ الرجلُ المؤمنُ بيانَه الدعويَّ بدعوتِه الصريحة لهم كي يتَّبعوه، ليوصِلَهم إلى سبيل الرشاد: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾

وبذلك يقفُ القومُ أمامَ دعوتيْن:

دعوةِ فرعونَ المستكبر، الذي قال لهم: ما أُريكم إلاّ ما أَرى، وما أَهديكم إلاّ سبيل الرشاد.

ودعوةِ الداعيةِ المؤمن، الذي قال لهم بصراحة: يا قوم اتَّبعون أَهدكم سبيل الرشاد.

وقد وضَّحَ لهم دعوتَه التي توصِلُ إلى سبيلِ الرشاد فعلاً، ورغَّبهم في الآخرة والجنة، وحذَّرهم من الاستجابةِ لدعوةِ فرعون، واعتبرَها دعوةً إلى النار، ودعاهم إلى المقارنةِ بين دعوتِه لهم إلى الجنة، وبين دعوةِ فرعون لهم إلى النار، وذكَّرَهم بأنَّ فرعونَ المستكبرَ الجبارَ الآن سيكون عاجزاً ذليلاً هناك في النار.

وردَ هذا في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٤١ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ۝٤٢ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤١ ـ ٤٣].

وبذلكَ قدَّمَ المؤمنُ الداعيةُ نفسَه ودعوتَه إلى القوم، وواجَه طغيانَ فرعون وملئه واستكبارهم، وفي هذا إقامةٌ للحجة عليهم، وهذا هو واجبه، والاختيارُ الآنَ عندهم، فإمّا أنْ يَقبلوا دعوتَه، ويَدخلوا الجنة، وإمّا أنْ يرفضوا دعوتَه، ويتَّبعوا فرعونَ راغبين وراهبين، وبذلك يَخسرون ويَدخلون مع فرعونَ النار.

لقد ختمَ الرجلُ المؤمنُ بيانَه الدعويَّ، بأنْ أخبرَ القومَ أنَهم سوف يَذكُرون دعوتَه ونصيحتَه، إنْ رفضوا الاستجابةَ له، لكن بعد فوات الأوان، أَمّا هو فقد فوَّضَ أمره إلى الله:

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤].

أدّى الداعيةُ المؤمنُ واجبه، ونصحَ قومَه، وتحدّى فرعون، ووقفَ أمامَ استكباره، وبذلك نالَ رضوانَ الله: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟...﴾.

أمّا القومُ المستضعفون فلم يَستجيبوا له، ولم يَجرءوا على مخالفةِ فرعون والوقوفِ أَمامه، فاستسلموا له، وتابَعوه على كفره وباطله، وبذلك شاركوه نهايتَه السوداء، وكانوا معه في العذاب، عذابِ القبر، ثم عذابِ جهنم: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۝ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥ ـ ٤٦].

هذا السياقُ كلُّه، وقصةُ مؤمن آل فرعون وأَحداثُها، تمهيدٌ للكلام على مصيرِ الفريقين: الأَتْباعِ والمتبوعين، أَو الضعفاءِ والمستكبرين، وحجاجِهم وخصامِهم في نارِ جهنم.

وكلامُنا الموجزُ السريعُ عن قصةِ مؤمنِ آل فرعون، وعن استضعافِ القومِ أَمامَ فرعون، ومتابعتِهم له، لنصلَ إلى تصويرِ موقفِ الفريقَيْن في النار.

يأمرُ اللهُ بإدخالِ الفريقَيْن نارَ جهنم: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾.

وتصوِّرُ لنا الآياتُ الحِجاجَ والخصامَ بينهم، وهم يعذَّبون في النار: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ

ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾.

أَطلقت الآيةُ على الأَتْباع وصفَ «الضعفاء»، بينما أَطلقتْ على السادةِ المتبوعين وصفَ «الذين استكبروا». ويَلتقي الوصفان مع الآياتِ الأُخرى. التي وصفتْهم بذلك.

وهذا الوصفُ للإشارةِ إلى سرِّ انحرافِ كلِّ فريق، وتعليلِ موقفه، فسببُ خضوعِ الأَتْباع وذلهم هو إصابتُهم بمرضِ «الاستضعاف»، وتسليمُهم بأَنهم ضعفاء أمامَ الكُبَراء. بينما كان سببُ تكبُّرِ المتبوعين وطغيانهم هو إِصابتُهم بمرضِ «الاستكبار»، وتسليمُهم بأَنهم أكبرُ من أَتْباعهم، وأنَّهم في مقام الآلهةِ لهم.

وبينما كان الضعفاءُ أذلاءَ جبناءَ أمامَ المستكبرين في الدنيا، لا يعارضونَهم ولا يجادلونَهم ولا يخالفونَهم، فإنهم الآنَ ـ في جهنم ـ يتمتَّعون بالجرأةِ والشجاعة، فهاهم يقفون أَمامَ المستكبرين، ويحاجّونهم ويُخاصمونهم، ويَطلبون منهم، ويَردّون عليهم.

قد تشجَّعوا متأخرين، بعد فواتِ الأوان، ولو فعلوا ذلك في الدنيا والفرصةُ قائمة، فسيغيِّرون حياتَهم، ويستفيدون من شجاعتِهم!

يُذَكِّرُ الضعفاءُ أَسيادَهم المستكبرين بصلتِهم بهم في الدنيا: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾. وقد وَقفْنا أمامَ حكمةِ التعبير بقولهم: ﴿تبعاً﴾ عند كلامِنا عن آيات سورة إبراهيم.

ويطلبُ الضعفاءُ من المستكبرين أنْ يساعدوهم ويَخدموهم مرةً واحدة: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ؟﴾.

هل تدفعونَ عنّا شيئاً من عذابِ النار؟ أو هل تستعدّون للعذاب نيابةً عنا؟ وهل تتبرعون بأخْذِ نصيبِنا وحصَّتِنا من العذاب؟

لقد أَفنينا أعمارَنا في الدنيا في خدمتِكم، والدفاع عنكم، وتلَقّي الأَخطارِ والمصائبِ نيابةً عنكم، ووقعَ بنا الأَذى من أجلكم، فكم أَغْنينا عنكم في الدنيا، والآن جاءَ دورُكم! ألا تقدِّمون لنا خدمةً واحدة، مقابلَ خدماتِنا العديدةِ لكم!! أَلا تُغْنون وتَدْفعون الخطرَ والعذابَ عنا مرةً واحدةً، مقابل المراتِ العديدة التي أَغنينا ودفعْنا عنكم!!!.

وطَلبُ الضعفاءِ من المستكبرين أنْ يُغْنوا عنهم نصيباً من النار، يَلْتقي مع آياتِ سورة إبراهيم التي تحدثَتْ عن نفسِ الموضوع:

قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [إبراهيم: ٢١].

وقالَ في هذه الآية: ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ؟﴾

يُجيبُ المتبوعون المستكبرون أَتْباعهم المستضْعَفين: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾.

وفي هذا الردِّ اعترافٌ بالعجز، لأنهم ليس في أيديهم شيءٌ من القوةِ أو المالِ أو السلطان، كما كانوا في الدنيا، فهم الآن ضعفاءُ مثلُ أَتْباعِهم الضعفاء.

يقولون لهم: إننا جميعَنا في النار، وجميعَنا معذَّبون في النار، نحن وإيّاكم، ولا يَقْدرُ أحدٌ على نصرةِ آخر أو الدفاعِ عنه، لأنه لا يملكُ من الأمر شيئاً. وإنَّ اللهَ قد حكَمَ بين العباد، بعد أَنْ أنهى الحساب، فأَدخلَ المؤمنين الجنة، وهم الآن منعَّمون فيها، وأَدخلَ الكفارَ النار، ونحن وإياكم الآن معذَّبون فيها. وعلينا أنْ نواجهَ هذا الحكمَ من الله علينا، وهذه العقوبةَ التي أَوقعَها بنا، وسواءٌ علينا ـ نحن وإياكم ـ أَجزِعْنا من العذاب أم صبَرْنا عليه، فلا نجاةَ ولا هربَ منه.

ويلتقي جوابُ المستكبرين لأتْباعهم هنا، مع جوابهم لهم الذي سجلَتْه آياتُ سورة إبراهيم: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١].

وينتهي الحوارُ والحِجاجُ بين الأَتْباع والمتبوعين، بإعلانِ السادةِ الكبراء لعجزهم عن نصرةِ أنفسهم، أَو الدفاعِ عن أَتْباعهم، ويشتركُ الفريقان في سوءِ العذاب.

ويتوجَّهُ الفريقان بالالتماسِ والرجاءِ إلى الملائكةِ حراسِ جهنم وخزنتها، يرجونَهم أنْ يدعوا ربَّهم، ليخففَ عنهم يوماً واحداً من العذاب، يوماً واحداً فقط: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ..﴾.

فيجيبهم الملائكةُ خزنةُ جهنم قائلين: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾.

وهذا الجوابُ تقريعٌ للفريقين، وتذكيرٌ لهم بموقفهم من الحق في الدنيا: لقد جاءتكم رسلُكم بالبينات في الدنيا، فرفضْتُم الحقَّ الذي معهم، وكفرتُم بهم، وما أَصابكم الآن من العذاب، هو بسببِ ذلك الموقف المخزي، فادعوا ربَّكم أنتم كي يخففَ عنكم يوماً من العذاب، أمّا نحنُ فلن ندعوَ لكم، لأنكم لا تستحقونَ الدعاءَ أو الشفقة.

وبينما يسكتُ السياقُ عن دعاءِ الكفار في النار، طالبين تخفيفَ العذاب، فإنه ينتقلُ للتعليق على دعائِهم، وأنه لا يُستجابُ له عند الله: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ...﴾.

ويتركُ السياقُ الكفارَ من الأَتْباع والمتبوعين، في دعائِهم غيرِ المستجاب، ليلتفتَ إلى المؤمنين السعداءِ الفائزين، ويُقررَ حقيقةً قاطعةً في انتصارهم في الدنيا والآخرة: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ..﴾

يومُ يقومُ الأشهاد هو يومُ القيامة، حيث يقومُ فيه الأشهادُ من الرسل وأَتْباعهم المؤمنين، يَشهدون أنهم قد بلّغوا، ويَشهدون على أقوامِهم الكفار.

وعرَّفَت الآياتُ يومَ يقومُ الأشهادُ بأنه يومُ خزيِ الكفار من

الأتْباع والمتبوعين وتعذيبهم: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ. . . ﴾.

الظالمون الكافرون من الأتْباع والمتبوعين، يُحاولون الاعتذارَ عن كفرهم، فلا تُقبَلُ معذرتُهم، ويحاولون إلقاءَ المسؤولية بعضُهم على بعض. فلا يُقبَلُ منهم، ويَطلبونَ النجاةَ من العذاب، فلا يُستجابُ لهم، ويوقعُ اللهُ بهم لعنتَه وعذابَه في ذلك اليوم، ويخلِّدهم في نار جهنم.

هذا هو مصيرُ الأتْباع والمتبوعين، أَذلاءَ مهانين، معذَّبين في نارِ جهنم، فمَنْ يرضى أنْ يكونَ هذا المصيرُ مصيراً له؟؟

● ● ●

(١٤)

النموذج الفرعوني للتبعية الضالة

بعدَ استعراضِنا للمشاهدِ العشرةِ السابقة للأَتْباع والمتبوعين - في سورِ البقرةِ والأعراف وإبراهيم والنحل والشعراء والقصص والأحزاب وسبأ وص وغافر - نتحدثُ عن نموذجٍ عمليٍّ للأَتْباع والمتبوعين، عرضَهُ القرآنُ وحلَّلَ مواقفَه، وبيَّنَ نهايتَه في الدنيا والآخرة.

هذا النموذجُ هو النموذجُ الفرعوني، المتمثلُ في «فرعونَ» وآلِه ومَلئِه من المتبوعين، وأتباعِهم من الجماهير والغوغاء.

وقد تحدثتْ آياتُ القرآن عن فرعونَ وملئِه كثيراً، واعتبرتْه «ظاهرةً» بارزةً مطردة، يمكنُ أنْ نسميَها «الظاهرةَ الفرعونية»، وهي ليستْ خاصةً بفرعون، ولكنها تتكررُ في أيِّ زمانٍ ومكان.

و«الظاهرةُ الفرعونية» نراها بصورةٍ واضحةٍ في أنظمةِ الحكمِ في العصرِ الحاضر، حيث يتابعُ فيها «الفراعين» السيرَ على خطى ذلك الفرعون.

وليس كلامُنا هنا عن تحليلِ «الظاهرةِ الفرعونية» لأنَّ هذا يحتاجُ إلى دراسةٍ قرآنيةٍ خاصةٍ للظواهر القرآنية، مثل: الظاهرةِ

الآدمية، والظاهرةِ الإبليسية، والظاهرةِ الفرعونية، والظاهرةِ الصديقية، والظاهرة النفاقية، ونرجو الله الإعانةَ على إخراجها في المستقبل.

«فرعونُ» لقبٌ أُطلقَ على كلِّ مَنْ حكمَ مصرَ وكان ملكاً عليها، في التاريخ الماضي، وهذا اللقبُ لا يُرادُ به شخصٌ بعينه، لأنه ينطبقُ على كلِّ حكامِ مصرَ وملوكها في فترةِ حكم «الفراعنة».

وتكلمَ القرآنُ عن فرعون كثيراً، أثناءَ حديثهِ عن قصةِ نبيِّ الله موسى عليه الصلاة والسلام، واضطهادِ الفراعنةِ لبني إسرائيل.

تحدثَ القرآنُ عن اضطهادِ فرعون وملئه لبني إسرائيل، وعن مظاهرِ الفسادِ والإفسادِ والطغيان في حكْمِ فرعون، وعن إرسال الله موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون وملئه، وعن تفاصيلِ المواجهةِ والحوار والجدال والتحدي، الذي واجَه به موسى فرعونَ وآلَه، وعن إيمانِ السحرة بالحق، وعن دفاعِ الرجل المؤمن من آل فرعون عن موسى، وعن استنفارِ فرعونَ لجنوده ولحاقه بموسى ومَنْ معه مِن المؤمنين، ثم نجاةِ موسى عليه السلام ومَن معه، وإغراقِ فرعون وجنودِه في البحر.

وختمَ القرآنُ حديثَه عن فرعون بتصويرِ جثتِه ملقاةً على شاطىء البحر، بعد أنْ لفظَتْه مياهُ البحر ليكونَ لمن خَلْفه آية.

وأَشارَ القرآنُ إلى مصير أَتْباعه الذين شايَعوه وتابَعوه يوم القيامة، عندما يقودُهم فرعون إلى نار جهنم.

وسنقفُ وقفةً موجزةً مع بعضِ المشاهدِ واللقطاتِ من قصةِ فرعون وملئه، وهي التي تتصلُ بمسألَةِ «الأتباع والمتبوعين».

أَشارتْ آياتُ القرآن إلى فسادِ الحكم الفرعوني، وإِفسادِ فرعونَ في الأرض، ونكتفي من تلكَ الآياتِ بهذه المجموعة من سورة القصص.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٤ ـ ٦].

مظاهرُ الفسادِ والإفساد في حكم فرعون أَنه جعلَ شعبَه ورعيتَه شيعاً متفرقين، فأَدنى وقرَّبَ طائفةً منهم، وهم الذين وافَقوه وتابَعوه وذلّوا له، وأَقصى طائفةً أُخرى واستضْعَفها وحاربَها.

والذي دفعَه إِلى هذه التصرفاتِ هو علُوُّه واستكبارُه: ﴿عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾. والعلوُّ والاستكبارُ هو أخطرُ مرضٍ وانحرافٍ يُصيبُ السادةَ والزعماء، وهو أَساسٌ لكلِّ التصرفاتِ والممارساتِ الاستعلائية التي تصدرُ عنهم بعدَ ذلك.

استكبارُ فرعون واستعلاؤُه، أنتجَ الطغيانَ والتجبر، ونتجَ عن ذلك الفسادُ والإفساد، وهذه هي «المتواليات» المتتابعة، التي

يفعلُها المتبوعون المتألّهون دائماً: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: ٦ ـ ١٤].

ادّعى فرعونُ الألوهيةَ والربوبية، ودعا شعبَه إلى تألِيهِه وعبادتِه، وورَدَ كلُّ هذا في آياتِ القرآن.

أمّا ادعاؤُه الأُلوهية، فقد سجَّلَه قولُه تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى... ﴾ [القصص: ٣٨].

وصرحَ بهذا الادعاءِ الفاجرِ رداً على دعوةِ موسى عليه السلام له ليخضعَ لله ربِّ العالمين ﴿ ... فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ .. ﴾ [القصص: ٣٨].

وأمّا ادعاؤُه الربوبية، فقد جاءَ رداً على دعوةِ موسى عليه السلام أيضاً، وسجّلَه قولُه تعالى: ﴿ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٠ ـ ٢٤].

وإذا كان فرعونُ قد ادّعى الأُلوهيةَ والربوبيةَ بصراحة، وقال بلسانه: ما علمتُ لكم من إلهٍ غيري، وأنا ربكم الأعلى. فإنَّ السائرين على طريقِه، من «فراعين» القرنِ العشرين، قد يتحرَّجون من التصريحِ بذلك بألسنتهم، ولكنَّ تصرفاتِهم وممارساتهم

وصِلاتهم بشعوبهم، تنطلقُ من هذه الدعوى، فهم يقولونها بلسانِ الحال، وإنْ لم يصرحوا بها بلسانِ المقال! فلسانُ حالِ أَحدهم يقول: ما علمتُ لكم من إله غيري، ويقول: أنا ربكم الأعلى.

وتخبرُنا آياتُ القرآن عن المتبوعين الذين اعتمدَ عليهم فرعونُ في إخضاعِ جماهير الأتْباع، وتعبيدِهم لفرعون. وهؤلاء المتبوعون كانوا عابدين لفرعونَ أولاً، مؤلِّهين له، ثم مارسوا أَدوارهم ووظائفهم في تعبيدِ الأتْباع.

لقد كانَ نظامُ الحكمِ الفرعوني يقومُ على أعمدةٍ ثلاثة:

١ ـ الإدارةُ وتنظيمُ الدولة: وهي المتمثلةُ في وزراءِ فرعون وآله وملئه، الذين كانوا يُخطِّطون ويُبرمجون ويُنظمون، وكان على رأسهم الوزيرُ الأولُ «هامان»، ومنصبُه أَشبهُ بمنصبِ رئيسِ الوزراء في الأنظمةِ المعاصرة.

كان فرعونُ يكلِّفُ هامان، وكان هامان يكلِّفُ وزراءَه بتنفيذِ رغباتِ فرعون. قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ۝٣٦ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦ ـ ٣٧].

٢ ـ المالُ واقتصاد الدولة: كانت قوةُ نظامِ فرعون الاقتصادية ممثلةً في «قارون». وقد أشارتْ آياتُ سورةِ القصص إلى طرفٍ من قصةِ قارون. حيث كان قارونُ إسرائيلياً من قوم موسى، ولكنه انضمَّ إلى جانب فرعون، وكان قارونُ ذا غنى كبير، قالَ

الله عنه: ﴿ ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ. . .﴾ [القصص: ٧٦].

وكان فرعونُ المتألِّهُ يستخدمُ المال أداةَ ضغطٍ على رجاله وأتْباعه، بأسلوبِ الترغيبِ للموافق، والترهيبِ للمخالف، ولذلك لما جاءَ السحرةُ لمباراةِ موسى عليه السلام وَعَدَهم ومَنّاهم بالمالِ والقربى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ. . .﴾

[الشعراء: ٤١ ـ ٤٢].

وقد جَمعتْ آياتُ القرآن هذه الأعمدةَ الثلاثة: فرعونَ وهامانَ وقارون، باعتبارِ موسى عليه السلام مبعوثاً إليهم. قالى تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٣ ـ ٢٤].

٣ ـ الجهازُ التنفيذيُّ في النظامِ الفرعوني: وهو الذي يتولّى التنفيذَ للقراراتِ التي يتخذُها فرعونُ أو آلُه، وكان هذا الجهازُ التنفيذيُّ يقوم على قاعدتيْن:

الأُولى: القاعدة الإعلامية التأثيرية، ويمثلُها «السحرة»، الذين كانوا أداةَ فرعونَ في إرهابِ الأتْباع النفسي، حيث كانوا يَسترهبونهم ويُخيفونهم ويُرعبونهم، بما يمارسونَه فيهم من فنونِ السحر وصوره وألْوانه، ومعظمُ هؤلاء السحرة كانوا من بني إسرائيل، والآخَرون كانوا من المصريين. وقد سجّلَ السحرةُ الإسرائيليون موقفاً عظيماً عندما آمَنوا بموسى عليه السلام.

الثانية: جنودُ فرعون من آلِه وملئِه الذين كانوا يُخْضِعون الأتْباعَ عن طريق الترهيبِ والضغطِ والتهديد، ويقومون بعقابِ المخالفين وتعذيبهم، كما سجلتْ آياتُ القرآن بعضَ ألوانِ تعذيبهم الرهيبة لبني إسرائيل.

وهاتان القاعدتان لا تَستغني عنهما أنظمةُ الحكم المعاصرة في العالم، ويسلكُ قادتُها سبيلَ فرعون في استخدامِها، فلا يخلو أيٌّ نظامٍ من أداةِ التأثير الإعلامي والإرهابِ النفسي، ولا من أداةِ الضغطِ الماديِّ والرصدِ الأمْني والوظيفي.

بهذه القواعد الثلاثة: الإدارةِ والاقتصادِ والضغط، أرسى فرعونُ دعائمَ حكمه، ومارسَ ضغطَه على أتْباعه، وادَّعى الألوهيةَ والربوبية.

لقد أرسلَ اللهُ موسى عليه السلام نبياً إلى فرعون، وإلى مَلَئِه. قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ..﴾ [المؤمنون: ٤٥ ـ ٤٧].

وقد رفضَ الملأُ دعوةَ موسى عليه السلام، كما رفضَها فرعون، واستعانَ فرعونُ بالملأ في مواجهةِ موسى عليه السلام.

فلما قابلَ موسى عليه السلام فرعون، وأبلَغَه بالرسالة، وأقامَ الأدلةَ أمامَه على وحدانيةِ الله، وأراه الآيةَ على نبوته، وهي العصا واليد، توجَّهَ فرعونُ إلى الملأ يستَعْديهم على موسى عليه السلام. قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢ ـ ٣٧].

قال فرعونُ للملإِ إنَّ موسى ساحرٌ عليم، يُريدُ أَن يخربَ البلادَ ويُدمِّرهَا ويُخرجَ أَهلها، فأخذَ الملأُ قولَ فرعون، ونشروه بين الناس، وأَوْصلوه لمن دونَهم منزلةً من الملأ. قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [الأعراف: ١٠٩ ـ ١١٢].

وهذه صورةٌ صارخةٌ من صورِ التبعيةِ لفرعون. ففرعونُ قال عن موسى: إنَّ هذا لساحرٌ عليم، يريدُ أَن يُخرجكم من أرضكم بسحره. وما أَنْ سمع ملَؤه المقرَّبون هذا الكلامَ حتى سارعوا بتبنِّيه والقولِ به، فتلقَّفَه منهم الملأُ الذين دونَهم وقالوا به، ثم نشَروه بين الناس، وصارَ الأَتباعُ يقولون به!!

فالملأُ هم أَعمدةُ نظام حكم فرعون، من الوزراءِ والزعماء والقادة، الذين كان يعتمدُ عليهم فرعونُ في حكمِ شعبه،

وإخضاعِهم له، وهم الذين تولّوا المواجهةَ العنيفةَ لموسى عليه السلام ومَنْ معه.

في تسميتِهم «الملأ» دلالةٌ لطيفة، فالكلمةُ مشتقةٌ من المَلْءِ والامتلاء، فهم مَلأٌ لأنّهم يملؤونَ المنصبَ الذي يَشغلونَه، ويَمتلىءُ بهم ذلك المنصب، ثم يَملؤون أَيْديهم من الحكمِ والمسؤولية، ويتصرَّفون بكل شيء، ويتحكَّمون في كل شيء، ويتدخَّلون بكلِّ شيء مما يخصُّ أَتْباعهم، فيمتلئون من كلِّ ذلك. وبعد ذلك يمتَلئون من المنافع والمصالح والمكاسب، سواءٌ كانتْ ماليةً أو ماديةً أو معنوية، لأنَّ الأمرَ كلّه بأيديهم.

ثم هم «مَلأ» لأنهم ـ بهذه المراكزِ والمزايا والمكاسب ـ يملؤونَ عيونَ أتْباعهم وقلوبهم ونفوسهم مهابةً وإجلالاً، وخَوْفاً ورجاءً، ورَغباً ورَهَباً، يُرهبون الأَتْباع، ويُرْعبونهم، ويُهدِّدون المخالِفين ويعاقبونهم، ويكون الأَتْباع دائمي التفكيرِ فيهم، يحسبون لهم أَلْفَ حساب، قبلَ قولِ أيِّ كلمة، والقيام بأيِّ عمل، وبذلك يَملؤونَ أَوقاتَ ومشاعرَ الأَتْباع وأفكارهم ومشاعرهم.

والملاحظةُ العجيبةُ المطردةُ في قصصِ القرآن أنَّ الذين كانوا يقودون الكفارَ في مواجهةِ الأنبياء هم الملأ. فنوحٌ عليه السلام واجَهَ الملأ الذين كفروا من قومه، وهودٌ عليه السلام واجَهَ الملأَ من قومه، وصالحٌ عليه السلام واجَهَ الملأَ من قومه، وكلُّ نبيٍّ واجَهَ الملأَ من قومه.

حتى الأنظمةَ المعاصرةَ تعتمدُ على «الملأ» في حكْمِها، وهذه الظاهرةُ واضحةٌ للعيان، وإنْ كانت في الأنظمةِ المعاصرة أكثرَ أهمية، وأَعمقَ رسوخاً وانتشاراً، وأَشدَّ تأثيراً وخوفاً ورعباً!

ولما عرفَ السحرةُ أنَّ الحقَّ مع موسى عليه السلام، فآمَنوا به واتَّبَعوه، ولم يَخضعوا لتهديدِ فرعون ووعيده، قامَ الملأُ بتهييجِ فرعون ضدَّ موسى ومَن معه، وكأنَّ فرعونَ يَحتاجُ إلى تهييج؟!

قال تعالى: ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٠ ـ ١٢٧].

يَدعو الملأُ المجرمون فرعونَ الطاغيةَ إلى القضاءِ على موسى ومَنْ معه، ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ..﴾.

ويوقِفُنا قولُهم: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾، فهو يوحي بأنَّ لفرعونَ آلهةً يَعبدُهم ويَدينُ لهم!!

فكيفَ نوفِّقُ بين هذا وبينَ ادعاءِ فرعون للألوهية والربوبية،

عندما قال لهم: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ و: ﴿ما علمت لكم من إله غيري...﴾؟

لقد كان لفرعونَ آلهةٌ يَعْبدها مِن دون الله، وَرِثَها عن آبائه وأجداده، وكان هو قد ادَّعى الألوهية والربوبيةَ أمامَ شعبه ورعيته. أي: هو عابدٌ لآلهتِه من جانب، وهو مَعبودٌ من قِبَلِ أَتْباعه من جانبٍ آخر، وهذا هو التناقضُ الواضح، فكيف صارَ عابداً ومعبوداً في نفسِ الوقت!

جَنَّدَ فرعونُ جنودَه وآلَه وملأَه وأَتْباعَه لمواجهةِ موسى ومن معه، وهَيَّجَهم على التصّدي له ومعاداتِه.

ولما وقفَ رجلٌ مؤمنٌ صالحٌ من آلِ فرعون يدافعُ عن موسى، ويَنهى فرعونَ وقومَه عن قتلِ موسى، ردَّ فرعونُ عليه. وقد ذكرتْ بعضَ ما جرى حول ذلك آياتُ قصةِ المؤمنِ في سورةِ غافر.

فرعونُ يقولُ لقومه: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

وهذا هو منطقُ الطغاةِ المتألِّهين، فموسى النبيُّ الكريمُ في نظرِ فرعونَ مفسِدٌ في الأرض، مخرِّبٌ للدين، ولهذا يجبُ أنْ يُقْتَل، أمّا فرعونُ فهو الحريصُ على الدين، المصلحُ في الأرض. أليسَ هذا هو لسانُ حالِ كلِّ طاغيةٍ متكبر؟.

ويردُّ موسى عليه السلام على تهديدِ فرعون باللجوءِ إلى الله:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧].

ويقفُ رجلٌ مؤمنٌ صالحٌ من آلِ فرعون موقفاً إيمانياً عظيماً، يقف أمامَ فرعونَ متحدِّياً له، مدافِعاً عن موسى عليه السلام، ويقولُ لفرعون وقومه: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا..﴾ [غافر: ٢٨ ـ ٢٩].

ومنطقُ هذا المؤمنِ موضوعيٌّ مقنع، لكنه لا يَستجيبُ له فرعونِ المتألِّه، ويخشى فرعونُ أنْ يؤثِّرَ المؤمنُ في الأتْباع ويكسبهم إلى جانبه، فيتوجَّه إليهم ويخاطبُهم بعجرفةٍ استعلاء. قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

بهذا المنطقِ كان المتبوعون يُخضعون أَتْباعهم، ويَدْعون الأتْباع إلى إلغاءِ عقولهم وشخصياتِهم وحرياتهم، والتحولِ إلى نكِراتٍ وأصْفار وأَتْباع.

يقولُ لهم فرعون: ما أُريكم إلاّ ما أرى.

أي: أَنا أَتولّى التفكيرَ والرأيَ نيابةً عنكم، فلا تُفكِّروا بشيء، لأنكم لستم مؤهَّلين للرأي، ولا قادِرين على التفكير، وإنْ فكَّرتُم فسوفَ تُخطئون، أَما أَفكاري فهي صائبة، ورأيي سليمٌ ناضج،

ولا يتطرّقُ إليه خطأ أَو تقصير. أَلستُ ربّكم الأعلى؟ فما أراه لكم فهو الرأي، وما آمركم به فلْينفَّذْ بدون تردُّد، وما أَقولُه لكم فلا أَحدٌ منكم يخالِفُه، ما أُريكم إلاّ ما أرى!!

وليس هذا المنطقُ خاصاً بفرعون في خطابه لأتْباعه، ولكنه منطقُ كلِّ مَنْ سارَ على طريقِ فرعون من الفراعين السابقين والفراعين المعاصرين!

كلُّ طاغيةٍ من هؤلاء لسانُ حالِه في تعامُله مع أَتْباعه يقول: ما أُريكم إلاّ ما أَرى، وأيُّ طاغيةٍ من هؤلاء يَرضى أنْ يُخالفه أَحدٌ في رأيه، أَو أَنْ يردَّ عليه قولَه، أو أنْ يَعترضَ على إرادته.

فرعونُ يقول لقومه: ما أُريكم إلاّ ما أرى، وما أَهديكم إلاّ سبيلَ الرشاد فهلْ هدى قومَه إلى سبيل الرشاد؟ وهل قدَّمَ لهم الرأيَ الرشيد؟ وهل أَسعدَهم في الدنيا؟

فلْنتابعْ مشاهدَ تاليةً عن هذا المتبوعِ المتألّه، وعن أَتْباعه المستضعفين.

لمّا تمَّ تصعيدُ المواجهة بين فرعون وملئِه وبين موسى ومَن معه، إلى النهاية، أَمرَ اللهُ موسى عليه السلام أنْ يَخرجَ بالمؤمنين مغادِراً مصر، ولمّا علمَ فرعونُ بذلك أخذَ جيشَه وجنودَه ولحقَ بهم ليقضيَ عليهم. قال تعالى: ﴿ ۞وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا

تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ [الشعراء: ٥٢ ـ ٦٥].

أَنجى اللهُ موسى عليه السلام ومَنْ معه، وأَغرقَ فرعون ومَلأَه وجنودَه وأَتْباعَه، وجعلَ اللهُ غرقَ فرعون آيةً من آياتِه. قال تعالى: ﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس: ٩٠ ـ ٩٢].

وتُصورُ لنا هذه الآيات تفاصيلَ نهايةِ هذا الطاغية، وما جَرى منه ولَه في اللحظاتِ الأخيرة.

لما وصلَ موسى عليه السلام بمنْ معهُ شاطئَ البحر، نظرَ القومُ خلْفَهم فإذا فرعونُ وجنودُه يَلحقون بهم، فخافوا وفزعوا، وأَيْقَنوا بالهلاك على يدِ الجنود، لكنَّ موسى عليه السلام طمأَنَهم. إنَّ اللهَ معه، وسوفَ يُنجيهم، ويُرشده إلى سبيلِ النجاة.

أَمرَ اللهُ موسى أنْ يَضربَ البحرَ بعصاه، وأَجرى اللهُ آيةً بيِّنَة، حيثُ فَرَقَ البحر، وكان كلُّ جانبٍ من مياهِ البحر كالجبل، وصارَ بين الجانبين طريقٌ ممَّهدٌ للسير، فدخل موسى بمن معه

هذا الطريق، وساروا وسْطَه، وكان ماءُ البحر عن أَيمانهم وشمائلهم متوقفاً!!

وقطعَ موسى ومن معه الطريقَ اليابسَ وسطَ الماء، ووصلوا إلى الجهةِ المقابلة، وكانَ فرعونُ وجنودُه متعجِّبين مشْدوهين مما يشاهدون. فدخلوا الطريقَ اليابسَ وسطَ الماء، ليلْحقوا ببني إسرائيل، وسارَ فرعونُ أَمامهم في الطريق.

وبينما كانوا يَسيرون أَمَرَ اللهُ البحرَ فانطبقَ عليهم، وصاروا تحتَ الماء. وغرقَ جنودُ فرعون وآلُه وملَؤُه، ودَفعوا ثمنَ تبعيَّتِهم لفرعون.

أمّا فرعونُ فإنَّ الآياتِ تخبرُنا عن ما قالَ، وما قيل له قبلَ أنْ يموت.

لما أَدركه الغرق، ورأى الموتَ أمامَ عينيه، وهو تحتَ الماء، وعرفَ أَنه مجردٌ من قوتِه وسلطانه، وزالتْ عنه هالتُه وعجرفتُه، عندها أَعلنَ إيمانَه بالله، ودخولَه في الإسلام! ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾.

آلآن آمَنَ بالله، وهو في حالةِ الاضطرارِ والاحتضار، أينَ ادّعاؤُه الأُلوهية؟ أينَ تعبيدُ قومِه له؟ أين قولُه لهم: ﴿ما علمتُ لكم من إله غيري﴾؟ أينَ قولُه لموسى عليه السلام: ﴿لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾؟ وأينَ وأينَ وأينَ؟؟؟

ولهذا قيلَ له: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ لماذا

تأخرَ إيمانُك إلى هذا الوقت؟ الوقتِ الذي لا يُقبلُ إيمانُك فيه.

وكما جعلَ اللهُ موتَ فرعونَ المتألِّهِ بالباطلِ آية، جعلَ إلقاءَ جثتِه على شاطىء البحر آية: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾.

بعد ما ماتَ فرعونُ أمرَ اللهُ الأسماكَ المفترسةَ أنْ لا تأكلَ جثتَه، وأَمَرَ مياهَ البحر أنْ تُلقيها على الشاطىء. فأنجى بذلك بدنَه بعدما خرجَتْ روحُه، وصارَ أتْباعُ فرعونَ وقومُه ـ الذين لم يَغرقوا معه ـ يمرّون ببدنِه الممدَّدِ على الشاطىء، ويَنظرونَ إليه بمنظِره القبيحِ المقزِّزِ بسببِ الغرق، ويتساءَلون: هل هذا إلهٌ ورب وهذه هي نهايتُه؟ أَهكذا تكونُ نهايةِ الإله؟ كم كان كاذباً عندما قالَ أنا ربكم الأعلى؟ ها هو مخلوقٌ ضعيفٌ مُحتاج عاجز، عجزَ عن دفعِ الغرق عن نفسه.

وهكذا كانت نهايةُ فرعونَ وملئِه وجنودِه، نهايةً بائسةً في الدنيا، وهكذا أَوصلَ فرعونُ قومَه إلى الهلاك، وهَداهم إلى طريقِ الدمار. قال تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾

[القصص: ٣٩ ـ ٤٢].

وعندما نعرفُ هذه النهايةَ السوداء، نتذكَّر قولَه لقومه: ﴿مَآ

أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ .

فهذه نتيجةُ رأيِه الذي رآه له ولقومه، نتيجةُ تفرُّدِه برأيه، وتفكيرِه لأتْباعه نيابةً عنهم، نتيجةُ متابعتِهم له، وإلغاءِ إراداتِهم وحرياتهم، وأفكارِهم وآرائهم.

هذه هي سبيلُ الرشاد التي أَعلنَ فرعونُ أَنه يهدي قومَه إليها، ويقودُهم لها، ويُحققُها لهم. إنها الهلاكُ والموتُ غرقاً تحت الماء!!

فرعونُ إمامٌ لِقومه، لكنه إمامُ ضلال، وآلُ فرعون وملؤه أَئمةٌ لأتْباعهم، لكنهم أَئمةُ شرّ، وهؤلاء المتبوعون الأئمةُ يحققون لأتْباعهم الهلاكَ والدمار، وهم بذلك أَئمةٌ يَدعون إلى النار، وهي إمامةٌ شيطانيةٌ ضالَّةٌ مضِلَّة.

فرعونُ المتألِّه الإمام، يقودُ قومَه ويوردُهم النار، وبئستْ هذه الإمامةُ والقيادةُ والريادة. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾

[هود: ٩٦ ـ ٩٩].

هذه الآياتُ من سورةِ هود تلخصُ لنا مسألةَ «الأتْباع والمتبوعين». وقد عرضتْ لنا سورةُ هود نماذجَ وأمثلةً من الأتْباع والمتبوعين، من خلالِ قَصصِ قوم نوح وعاد وثمود ومدين، وقوم لوط، حيث كانَ الكفارُ الأَتْباعُ يُتابعون الملأَ

المتبوعين، وكان اللهُ يُنجي الرسلَ ومَنْ آمنَ بهم، ويُهلكُ الملأَ ومَن تابَعوهم، فكانت نتيجةُ هذه التبعية الضالة هلاكاً في الدنيا، وخُلوداً في النار يومَ القيامة. ولهذا جاءتْ هذه الآياتُ في التعقيبِ على تلك القصص: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ۝ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۝ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠ ـ ١٠٢].

وفرعونُ وآلُه هم مثالٌ واضحٌ للمتبوعين، وأتْباعُهُ هم مثالٌ واضح للأتْباع المستضْعَفين، لقد رفضَ فرعونُ وملَؤُه وقومُه دعوةَ موسى عليه السلام الهادية إلى الجنة، واختارَ الملأُ والأتْباعُ دعوةَ فرعونَ إلى الباطل، وعبدَ القومُ فرعونَ وآلِهوه، واتَّبعوا أمرَه، ونفَّذوا تعليماتِه: «واتبعوا أمر فرعون».

وما كان فرعونُ رشيداً، وما كان أَمره رشيداً، وما كانتْ قيادتُه وإمامتُه رشيدة، وما دَعا أَتْباعه إلى سبيل الرشاد: ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾.

كان فرعونُ إماماً قائِداً لقومِه. لكنْ إلى أينَ أَوصلهم؟ ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾.

وأَوقعَ اللهُ بالأتْباع لعنَتَه وعذابَه: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾.

ويَصلحُ النموذجُ الفرعونيُّ للتبعيةِ الضالةِ، مثالاً واضحاً

لمسألةِ الأَتْباع والمتبوعين، باعتبارِ هذا النموذجِ مكرّراً في تاريخِ البشرية. ففرعونُ مكرَّرٌ في أمثاله من الفراعين، وآلُه مكرورون في آلِ الفراعين، وجنودُه مكرورن في جنودِ الفراعين المتبوعين، والأَتْباعُ مكرورون في أَتْباع المتبوعين. وعندما نقفُ مع قصةِ فرعون في القرآن، فلا بدَّ أنْ نلحظَ أَبعادَها المعاصرة، وأنْ ننظرَ من خلالها إلى الأَتْباع والمتبوعين المعاصرين!!.

ونقفُ في نهايةِ كلامِنا عن الأَتْباعِ والمتبوعين من خلالِ النموذج الفرعوني، نقفُ مَع آياتٍ تحلِّلُ وتعلِّلُ وتفسِّرُ سِرَّ متابعةِ قوم فرعون له، وسِرَّ تألُّهِه عليهم.

قال تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾ [الزخرف: ٥١ ـ ٥٦].

تألَّهَ فرعونُ لأنه استعلى واستكبر، واعتزَّ بملكِه وسلطانه، وأَعْماه الملك، وأَسكره المنصب، وخاطبَ أَتْباعه بكلِّ استعلاء: أليس لي ملكُ مصر، وهذه الأنهارُ تَجري من تحتي أَفلا تُبصرون؟

واحتقرَ موسى عليه السلام، ودَعا قومَه إلى ازدرائِه، فماذا يُساوي موسى أَمامَ فرعون؟ ماذا يُساوي في ميزانِ فرعون وآله؟ إنَّه مَهينٌ محتقَر، وهو عاجزٌ عن الكلام، لا يَكادُ يُبينُ أَو يُفصِحُ

أَلفاظَه. ولو كانَ اللهُ بعثَه نبياً لبعثَ معه ملائكةً مصاحبين له، أو منحهُ المالَ الكثير، المتمثلَ في الكنوزِ وأَسْوِرَةِ الذهب. ولهذا قالَ فرعونُ لقومه: ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾.

واستكبارُ فرعونَ واستعلاؤُه قادَهُ إلى استخفافِ قومه وازدرائِهم واحتقارهم: ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ ﴾ إنه الرقمُ الذي له قيمة، وهم أَصفارٌ مهملة، إنه الوحيدُ المتفردُ في كل شيء، المالكُ لكلِّ موهبة، وهم مجرَّدون من كلِّ شيء، وما عليهم إلاّ أنْ يدوروا في فَلَكه، ويتحوَّلوا إلى عبيدٍ له.

ما هو موقفُ قومه؟ كيفَ تعامَلوا مع استعلائِه واستكباره؟ وكيف رَدّوا على استخفافِه بهم وازدرائِه لهم؟ رَدُّوا على ذلك بالطاعةِ والعبوديةِ والاستسلامِ والاستضعافِ والتبعية: ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾.

لكن ما هو سرُّ استسلامِ قومِه له وطاعتهم؟ ولماذا رَضوا بالاستضعافِ المُهين والتَبعيةِ الذليلة؟ ولماذا أَلْغَوْا وجودَهم وغيَّبوا عقولَهم وتنازَلوا عن حرياتهم وشخصياتهم؟

إنه الفسقُ الذي دَفَعهم إلى كل هذا، وحملَهم على كل هذا: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

المتبوعون لا يتألَّهون إلاّ بعدَما يستكبرون ويَستعلون. والأَتْباعُ لا يتابِعون إلاّ بعدما يفسقون. والنموذجُ الفرعونيُّ أَصدقُ مثالٍ على هذا، ولكنه مكرورٌ في الزمان والمكان، ينطبقُ

على كلِّ متبوعين أَينما كانوا، وعلى كل أَتْباع أَينما وُجدوا.

وأَختمُ الكلامَ عن النموذجِ الفرعونيِّ والتبعيةِ الضالة، بهذه العباراتِ الرائعةِ التي أَوردها سيدُ قطب في تفسيره لهذه الآيات: «واستخفافُ الطغاةِ للجماهيرِ أَمرٌ لا غرابةَ فيه، فهم يَعزلون الجماهيرَ أَوَّلاً عن كلِّ سبلِ المعرفة، ويحجبونَ عنهم الحقائقَ حتى ينسوها، ولا يَعودوا يَبحثونَ عنها، ويُلقون في رُوعِهم ما يشاءون من المؤثِّرات، حتى تنطبعَ نفوسُهم بهذه المؤثِّرات المصطنعة، ومن ثمَّ يسهلُ استخفافُهم بعد ذلك، ويَلين قيادُهم، فيذهبون بهم ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال مطمئنين».

ولا يَملكُ الطاغيةُ أنْ يفعلَ بالجماهيرِ هذه الفعلة إلاّ وهم فاسقون، لايَستقيمون على طريق، ولا يُمسكون بحبلِ الله، ولا يَزنون بميزانِ الإيمان، فأمّا المؤمنونَ فيصعبُ خِداعُهم واستخفافُهم، واللعبُ بهم كالريشةِ في مهبِّ الريح. ومِنْ هنا يعلِّلُ القرآن استجابةَ الجماهيرِ لفرعون فيقول: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾[1].

• • •

(١) في ظلال القرآن ٥: ٣١٩٤.



(١٥)

خلاصة مسألة التبعية

في ختامِ هذه الدراسةِ القرآنيةِ للأَتْباع والمتبوعين، نقفُ لنستخلصَ خَلاصةً لها.

بدأْنا هذه الدراسةَ بالإشارةِ إلى أَهميةِ موضوعِ التبعية، ثم تحدثْنا عن الألفاظِ والتعابير عن التبعية في القَرآن، مثل: الاقتداء، والاتساء، والإمامة، والخلة، والاستضعاف، والاستكبار، والإضلال.

ثم وقفْنا مع المشاهد واللقطات والصور التي عرَضَتها آياتُ القرآن للأَتْباعِ والمتبوعين، الذين يَسيرونَ في طريقِ الباطل والضلال، وحلَّلْنا تلك الآياتِ تحليلاً موجزاً، وبيّنّا سماتِ كلٍّ من الأَتْباع والمتبوعين وصفاتهم التي أَشارتْ لها الآيات، ثم أَبرزْنا ما سيكونُ بين الأَتْباع والمتبوعين أَثناءِ حسابهم يوم القيامة، أو أَثناءَ تعذيبهم في النار، حيث يكون بينهم تخاصُمٌ وتلاعُنٌ وسباب وتشاتُم.

وكانتْ وقفتُنا مع عشرِ سورٍ عرضتْ هذه المسألة، وعرضْناها على أَساسِ ترتيبِ المصحف، وهذه السور هي: سورةُ البقرة،

وسورةُ الأعراف، وسورةُ إبراهيم، وسورةُ النحل، وسورةُ الشعراء، وسورةُ القصص، وسورةُ الأحزاب، وسورةُ سبأ، وسورةُ ص، وسورةُ غافر.

ثم تحدَّثْنا عن أَبرزِ وأَوضحِ نموذجٍ واقعيٍّ عرضَه القرآنُ للتبعيةِ الضالة، وهو النموذجُ الفِرعوني، أو الظاهرةُ الفرعونية. وقَفْنا وقفةً موجزةً مع مظاهرِ الإفساد في حكم فرعون، ثم أَعمدةِ حكمهِ الإداريةِ والاقتصادية والإعلامية، ودورِ كلٍّ من هامان وقارون والسحرة والآل والملأ والجنود في دعمِ نظامِ حكمه، وبعضِ ما جرى بينَه وبين موسى عليه السلام، وموقفِ الملأ من ذلك، ووقوفِ الرجلِ المؤمن من آل فرعون مدافعاً عن موسى عليه السلام، واستكبارِ فرعونَ في قوله لقومه: ما أُريكم إلاّ ما أَرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد. وتابَعْنا نهايةَ هذا الطاغيةِ المتجبِّرِ المتألِّه لمّا لحقَ هو وجنودُهُ بموسى عليه السلام ومَنْ معه، حيث أَغرقَه اللهُ هو وجنوده، ووقَفْنا مع اللحظاتِ الأَخيرةِ من حياة فرعون تحتَ الماء، كما عرضَتْها آياتُ سورة يونس، ثم أَشرْنا إِلى إمامةِ فرعونَ لقومِه إلى النار، ونهايةِ متابعتِهم له معذَّبين معه في نارِ جهنم، ثم ختَمْنا كلامَنا عن هذا النموذجِ بتحليلِ نفسيةِ فرعونَ المستكبرِ المتألِّه، ونفسيةِ قومه وسببِ متابعتهم له، كما بيَّنَتْه آياتٌ من سورة الزخرف.

هذا هو موجزُ موضوعاتِ هذه الدراسة.

ونختمُ هذه الدراسةَ بهذه الخلاصةِ لمسألةِ التبعية:

ما هي أَسبابُ تبعيةِ الأَتْباع للمتبوعين، واستضعافِهم أَمامهم، واستذلالِهم لهم؟

لقد أَشارت الدراسةُ المحلِّلَةُ للآياتِ إلى هذه الأسباب:

١ ـ خوفُهم على أموالِهم وأَرزاقِهم وممتلكاتهم.

٢ ـ خوفُهم على أعمارهم وحياتهم ودنياهم.

٣ ـ خوفُهم من بطش المتبوعين وأذاهم.

٤ ـ فسقُهم وانحرافُهم وابتعادهم عن المنهج الرباني.

٥ ـ رغبتُهم في الدنيا وإِقبالُهم عليها، وحرصُهم على ملذاتها.

٦ ـ نسيانُهم الآخرةَ وإنكارهم لها.

٧ ـ حرصُهم على التزلفِ والتقربِ للسادة الكبراء المتبوعين.

٨ ـ هوانُهم على أَنفسهم، ووَأْدُهم لشخصياتِهم وإراداتهم وحرياتهم.

أما أهمُّ أَسبابِ استكبارِ المتبوعين وغطرستهم، وإذلالِهم لأَتْباعهم، وإخضاعهم لهم فهي:

١ ـ انتفاشُ نفسياتهم وانتفاخُها، وشعورُهم بأنهم أكبرُ بكثيرٍ من حجمهم الطبيعي.

٢ ـ استحواذُ الشيطان عليهم، وإِغواؤُه لهم، وتحويلُهم إلى حزبه، ليكونوا جنوداً وأعواناً له.

٣ ـ كفرُهم بالله، ونسيانُهم له، وتعدّيهم على حقِّ الله في

العبـادةِ والاستعـانـةِ والحكـم والتشـريـع، وادّعـاءُ الألـوهيـة أو الربوبية، وتعبيدُ الأتْباع لهم من دون الله.

٤ ـ عدمُ إيمانِهم بالآخرة، بحيثُ لا يحسبون حساباً للنهاية، ولا للوقوفِ بين يدي الله، ولا لاستقرارِهم في نارِ جهنم، فلو آمنوا بهذا لاستعدّوا له، وحرصوا على النجاةِ منه.

٥ ـ انحـرافُهـم، وانكبـابُهـم علـى المعـاصـي والـذنـوب، وانغماسُهم في الشهوات والملذات، وممارسةُ حياتهم بصورةٍ إباحية بهيمية!

٦ ـ اغترارهم بما جعلَ اللهُ تحتَ أيديهم من مظاهرِ المالِ والجاه والمنزلة والسلطان، وتخدّرهم بالقيادةِ والسيادةِ والمنصب والزعامة، وتحويلُهم ما تحت أيديهم إلى أَداةِ ضغطٍ واستكبار، واستعبادٍ للأَتْباع، وفرصةٍ للاستحواذِ على أكبر قدرٍ ممكن من المنافع والمصالح الشخصية.

٧ ـ رضوخُ أَتْباعِهم لهم، ورضاهم بما يمارسُه متبوعوهم من استخفـافٍ وازدراءٍ واستعبـاد، وتنـازلُ الأتْبـاعِ عـن وجـودهـم وشخصياتِهم وآرائهم، وإراداتهم وحرياتهم وعقولهم، وقبولُهم أنْ يكونوا مجردَ أصفارٍ ضائعةٍ أَمام المتبوعين.

وبما أنَّ المتبوعين يجدونَ عند أَتْباعهم «القابلية النفسية» لـلاستعبـادِ والاستضعـافِ والاستـذلال، وبمـا أنَّ المتبـوعيـن لا يَجدون في نفوسهم ما يمنعُهم من الاستكبار والطغيان، فلماذا لا يَطْغون ويستكبرون؟؟

وأشهرُ أساليبِ المتبوعين في إغواءِ الأتْباع وإخضاعهم هي:

١ ـ الاستخفافُ بهم وازدراؤُهم، وإشعارُهم بأنهم الأقلُّ والأذلُّ والأدنى، وأنَّ متبوعيهم هم الأعزُّ والأكمَلُ والأفضل.

٢ ـ التفريقُ بينهم، وتقسيمُهم إلى شيعٍ وأَحزاب، وتصنيفُهم إلى مؤيدين ومعارضين، وإيقاعُ الفرقةِ والخلافِ بينهم.

٣ ـ إذاعةُ الإفساد فيهم، ونشرُ الشهوات بينهم، وتسهيلُ وسائِل الحصول على الملذات، وذلك لينشغلوا بها، ويسهلَ قِيادُهم.

٤ ـ استخدامُ أسلوب الإغراء والترغيب، وتقديمُ المصالحِ والمنافع والمراكز والمكاسب، ليبقوا ممتَنين لهم.

٥ ـ استخدامُ أُسلوبِ التهديدِ والوعيد والترهيب، لكلٍّ منْ يفكرُ في المخالفةِ أو المعارضة، فالإغراءُ والترغيبُ من جانب، والوعيدُ والتهديدُ من جانب آخر، وهي سياسةُ «العصا والجزرة» المعروفة.

٦ ـ اللجوءُ إلى العنفِ والبطشِ بكلِّ مَنْ يخالفُ ويخرجُ على المتبوعين، وإيقاعُ أَشدِّ صنوفِ العذاب به، لسحقِه من جانب، وليكونَ عبرةً لغيره من جانبٍ آخر.

وأهمُّ أَلوانِ اتِّباعِ الأتْباع للمتبوعين هي:

١ ـ متابعةُ الآباءِ والأجداد فيما كانوا عليه من باطلٍ وكفرٍ

وضلال، والسيرُ على طريقتهم في عبادةِ غير الله، وتقليدُهم فيما وجدوهم عليه.

٢ ـ اتّباعُ المتبوعين في العقيدة، والرضا بما يقدِّمونه للأَتْباعِ من الدين والحق والباطل، والالتزامُ بكلِّ ما يصدرُ عنهم، وعبادةُ هؤلاء المتبوعين وتأليهُهم.

٣ ـ اتباعٌ أَخلاقيٌّ يتمثلُ في الاقتداءِ بالمتبوعين في مظاهرِ انحرافِهم السلوكي، وانغماسُهم في الملذات والشهوات.

٤ ـ اتِّباعٌ فكري: بإلغاءِ الأَتْباعِ لآرائهم وأفكارهم وعقولهم، والتلقي في كلٍّ ذلك عن سادتِهم وكبرائهم، وأَخْذِ الأفكار والآراء والمفاهيم التي يقدِّمُها لهم هؤلاء الكبراء.

٥ ـ اتّباعٌ سياسي: بالانحيازِ إلى جانبِ المتبوعين، وموالاتِهم والتحالفِ معهم، وربْطِ مصيرهم بمصيرهم، وتأييدِ كلٍّ ما يصدرُ عنهم.

وعند النظرِ في الآيات التي حلَّلَتْ مسألةَ «الأَتْباع والمتبوعين»، فإنها تحددُ النهايةَ المأساويةَ لكُلٍّ من الأَتْباع والمتبوعين، في الدنيا وفي الآخرة.

١ ـ ففي الدنيا: يشتركُ الأَتْباعُ مع المتبوعين في هذا المصير البائس، فإذا دمَّرَ اللهُ المتبوعين دمَّرَ أَتْباعَهم، وإذا أَغرقَ المتبوعين أغرقَ أَتْباعهم، هذا ما حصلَ مع قوم نوح وقوم لوط، وهذا ما حصلَ مع عادٍ وثمود ومدين، وهذا ما حصلَ مع فرعون وجنودِه وآلِه وقومه.

٢ - وفي الآخرة: يشتركُ الأتْباعُ مع المتبوعين في العذاب، حيث يوقَفون للحساب معهم، ويشعرون بالحسرةِ والندامةِ والخزي والذل معهم، ويَدخلون جهنم معهم، ويتقلَّبون في نارها وعذابها معهم، ويخلَّدون فيها معهم، ويتحملون المسؤوليةَ معهم.

ونسجلُ في خاتمةِ هذه الخلاصةِ السبيلَ القويمَ للخروجِ من التبعية، والتخلصِ من إسارها، وذلك في هذه الدنيا، وما زالت الفرصةُ قائمة، لأنَّ مَنْ لم يتخلَّصْ من التبعيةِ، وشاركَ المتبوعين مصيرَهم الأسودَ في الدنيا والآخرة، فإنّه يتمنّى وهو في نارِ جهنم أنْ لو لم يُتابع المتبوعين على باطلهم، واستجابَ للحقِّ واتبع الرسل.

إنَّ سبيلَ الخلوصِ من التبعية هي:

١ - الاهتداءُ إلى الحق، والالتزامُ بالإسلام بصدق، والوقوفُ عند أحكامه، والابتعادُ عن نواهيه.

٢ - الإقبالُ على الله، والإكثارُ من ذكره، والشعورُ بمراقبته، وملءُ القلبِ والكيانِ بالتفكيرِ في آياته وأفعاله، ومعايشةُ آثارِ أسمائه وصفاته معايشةً إيجابيةً في الحياة.

٣ - الحياةُ بالقرآن، وإدراكُ حقائقه ومقاصده، واستمرارُ تدبره، وفهمُ معانيه، والانشغالُ به، وبناءُ كيان الشخصيةِ من خلال نصوصهِ ومبادئه، وتحقيقُ التكامل والانسجامِ في جوانب هذه الشخصية.

٤ ـ صياغةُ الأفكارِ والمبادىء من خلالِ حقائقِ القرآن، وتكوينُ الخلفيةِ الثقافية والعلمية من خلاله، وإعمالُ الفكرِ والعقل على هديه.

٥ ـ الاتصافُ بالصفاتِ الإيجابية، والاعتدادُ بالحريةِ والإرادة، والحرصُ على العزة والكرامة، والتخلّي عن الصفاتِ السلبية كالجبن والهوان والتبعية.

٦ ـ النظرُ للمتبوعين بالمنظارِ القرآني، ليراهم على صورتِهم الحقيقية بدون تكبيرٍ أو انتفاش، ووزنُهم بميزانِ القرآن، لئلا ينخدعَ بما عندهم من متاع.

٧ ـ تذكُّرُ المصيرِ الأسودِ البائسِ للمتبوعين وأتباعهم في الدنيا والآخرة، واستحضار ذلك المصير لإنقاذِ نفسه منه بالتخلّي عن متابعةِ المتبوعين.

● ● ●

المحتوى

(٣)

(٤)

(٧)

(٨)

(٩)

(١٢)

(١٣)

(١٤)

(١٥)

● ● ●

كتب صدرت للمؤلف

مرتبة حسب صدور طبعاتها الأولى

١ ـ سيد قطب الشهيد الحي (نفد)

٢ ـ نظرية التصوير الفني عند سيد قطب (نفد)

٣ ـ أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب (الطبعة السابعة)

٤ ـ مدخل إلى في ظلال القرآن (نفد)

٥ ـ المنهج الحركي في ظلال القرآن (نفد)

٦ ـ في ظلال القرآن في الميزان (نفد)

٧ ـ مفاتيح للتعامل مع القرآن (الطبعة الثانية)

٨ ـ في ظلال الإيمان (الطبعة الثانية)

٩ ـ الشخصية اليهودية من خلال القرآن (الطبعة الثانية)

١٠ ـ تصويبات في فهم بعض الآيات (الطبعة الثانية)

١١ ـ مع قصص السابقين في القرآن: ١ ـ ٣. (الطبعة الثانية)

١٢ ـ البيان في إعجاز القرآن (الطبعة الرابعة)

١٣ ـ ثوابت للمسلم المعاصر (الطبعة الثانية)

١٤ ـ إسرائيليات معاصرة (الطبعة الثانية)

١٥ ـ سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد (الطبعة الثانية)

١٦ ـ لطائف قرآنية
١٧ ـ هذا القرآن
١٨ ـ حقائق قرآنية حول القضية الفلسطينية (الطبعة الثانية)
١٩ ـ الخلفاء الراشدون بين الاستخلاف والاستشهاد
٢٠ ـ التفسير التأويل في القرآن
٢١ ـ تفسير الطبري: تقريب وتهذيب: ١ ـ ٧
٢٢ ـ القصص القرآني وقائع وأحداث
٢٣ ـ الخطة البراقة لذي النفس التواقة
٢٤ ـ الأتباع والمتبوعون في القرآن
٢٥ ـ التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق

● ● ●